عاشورائيات

نعيم قاسم
أميرة برغل
عبد المجيد زراقط
علي مهدي زيتون
فضل مخدّر
طلال عتريسي
شفيق جرادي
علي مسيّبي
علي سائلي



معهد المعارف الحكمية
(للدراسات الدينية والفلسفية)
THE SAPIENTIAL KNOWLEDGE INSTITUTE
(FOR RELIGIOUS & PHILOSOPHICAL STUDIES)


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


عاشورائيات

اسم الكتاب: **عاشورائيات**

المؤلفون: الشيخ نعيم قاسم - الحاجة أميرة برغل -
د. عبد المجيد زراقط - د. علي مهدي زيتون -
الشيخ فضل مخدر - د. طلال عتريسي -
الشيخ شفيق جرادي - الشيخ علي مسيبي -
الشيخ علي السائلي.

الناشر: **معهد المعارف الحكمية** (للدراسات الدّينية والفلسفيّة).

تصميم الغلاف: IDEA CREATION

عدد النسخ: 1000

عدد الصفحات: 136

القياس: 14.5 x 21

تاريخ الطبع: ك٢ 2006



الطبعة الأولى

1426هـ - 2006 م

إن الآراء والإتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذا الكتاب، لا تعبّر بالضرورة عن رأي معهد المعارف الحكمية، وإن كانت في سياق اهتماماته المعرفية.



معهد المعارف الحكمية

بيروت - حارة حريك - الشارع العريض - قرب البنك اللبناني الفرنسي - سنتر صولي

هاتف: 544622 -01 ص .ب الشياح 20

Email:almaaref@shurouk.org - maahad@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة:

"عاشورائيات" مجموعة محاضرات ألقيت في معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدّينية والفلسفية) خلال الأيام التسعة الأولى من محرّم ١٤٢٦هـ. وتناولت مجموعة من المواضيع المهمة المستمدة من واقع الثورة وحيثياتها.. .

تحدثت المحاضرة الأولى عن وصايا الإمام الحسين عليه السلام في مسير ثورته، الوصايا التي حددت منطلقات وأهداف هذه الثورة ومسؤولية الأمة في العمل على كشف النفاق، والعمل بمقتضى التكليف الشرعي من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل..

وعالجت المحاضرة الثانية موضوع الأسرة المسلمة في الثقافة العاشورائية وما لهذه الأسرة من مميزات، والقواعد التي يمكن أن نستفيدها للعمل التربوي داخل الأسرة..

أما المحاضرة الثالثة فقد قدمت قراءة لخطاب المقاومة الإسلامية الذي يستحضر مفردات ومواقف عاشوراء وكربلاء بكل أبعادها وخلفياتها ومفاعيلها ويضعها في مجريات الزمن...

كما عالجت المحاضرة الرابعة موضوع المنشأ التاريخي للعادات العاشورائية وكيفية وزمان نشوء المأتم الحسيني بدءا من مرحلة الأئمة عليهم السلام مروراً بمراحل الحكومات الشيعية: البويهية والفاطمية والصفوية..

وخصصت المحاضرة الخامسة للحديث عن قصيدة "عيد الغدير" لبولس سلامة، ودارت المحاضرة السادسة حول موضوع ثقافة عاشوراء، ومضامين الثورة الكربلائية ودروسها وعبرها ودورها، وأنها وضعت الحد الفاصل بين إسلام محمد صلى الله عليه وآله وإسلام الملوك والسلاطين، فكانت شهادة على الأمة وهذه

الشهادة هي رسالتها وثقافتها..

والمحاضرة السابعة بعنوان " عاشوراء بين قدسية الموت وثقافة الحياة" تحدثت عن تشكيل الرؤية العملية والموقف الذي ينتهجه المؤمن من الموت والحياة وكيف نظر الإسلام إليهما، وكيف نظر الإمام الحسين عليه السلام إلى خير الدنيا والآخرة..

وفي المحاضرة الثامنة كان الحديث عن تولي الإمام الحسين بين الغلو والاعتدال حيث شرحت معاني الغلو وكيفيته وان المطلوب هو إعطاء الإمام الحسين وباقي الأئمة عليهم السلام حقهم من التقدير وان أي وصف لهم بما لا يليق بهم ويتجاوز الحدود هو غلو وخروج عن الدين.. وختمت المحاضرات بالحديث عن "الرضوان الإلهي في محضر المجلس الحسيني"..

ان معهد المعارف الحكمية (للدراسات الدّينية والفلسفية) ينشر هذه الأبحاث المهمة تعميما لفائدتها، ومساهمة متواضعة في نشر الثقافة العاشورائية.. والله من وراء القصد.

وصايا الإمام الحسين عليه السلام في مسير ثورته

وصايا الإمام الحسين ﷺ في مسير ثورته

وصايا الإمام الحسين ﷺ أثناء مسيره إلى كربلاء، انطلاقاً من المدينة المنورة، مروراً بمكة المكرَّمة، ووصولاً إلى كربلاء، مع محطات في الطريق.

سنجمع في هذا اللقاء كلمات الإمام الحسين ﷺ، لنجد الصلة الموجودة بينها، انطلاقاً من المدينة المنورة وصولاً إلى كربلاء. لأنَّ قرَّاء السيرة - بالإجمال - يقتطفون بعض الحوادث ويسوقونها في دائرة مجالس متفرقة، ما يبعد صلة الوصل بين كلمات الإمام الحسين ﷺ، كذلك عندما يتعرَّض المحاضرون لكلمات ومواقف الإمام ﷺ، فإنّهم يقتطعون جزءاً منها انسجاماً مع الموضوع الذي يريدون التركيز عليه. من هنا كانت أهمية التأمل بهذه الوصايا من خلال كلمات الإمام الحسين ﷺ، لأنها في الواقع تمثِّل حركة متكاملة ومتواصلة، وتؤسس لحركة تربوية منهجية تثقيفية للأمة على امتداد الزمن. هنا أتوجه بالشكر لسماحة الشيخ شفيق وللأخوة في هذا المعهد، الذين أتاحوا لي الفرصة بهذا الربط بين الكلمات بشكل هادف، من خلال هذه المحاضرة التي سيكون سياقها سياق الوصايا، من دون التركيزعلى عنوان محدَّد من العناوين الفرعية أو الأساسية في حركة الإمام الحسين ﷺ:

أولاً- القيادة المؤهلة :

نبدأ من الوصية الأولى عندما أرسل يزيد لعنه الله إلى الوليد بن عتبة يطلب منه أن يأخذ البيعة من الإمام الحسين ﷺ، وقد استدعاه إلى مقر إدارته، وهناك جرى حوار انتهى بكلمات للإمام الحسين ﷺ قال فيها: *"أيها*

الأمير، إنَّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب للخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون، أيُّنا أحق بالخلافة والبيعة" .

حدَّد الإمام من اللحظة الأولى طبيعة المؤهَّل للقيادة، واعتبر أن القيادة التي تبايع هي التي تتميز بصفات محددة، هذه الصفات غير متوفرة في يزيد فهو فاسق شارب للخمر قاتل للنفس المحترمة، ولكنها متوفرة في الإمام الحسين ﷺ: «***إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم***»، ففي بداية التحرك لا بدَّ أن نتعرف على القيادة التي نسير وراءها، وعلى القيادة التي نسلمها رقابنا، إذ لا يمكن أن يستخف الإنسان بالموقف، ولا أن يسير مع السائرين كيفما كان، هناك مسؤولية أخلاقية ودينية وسياسية في هذه الدنيا، ومسؤولية في الآخرة حول نوعية الاختيار وكيفية السير، وأي ولي نتولاه وأي قائد نسير تحت لوائه.

ربما ضاع في التاريخ معنى القيادة بالطريقة الصحيحة، واستبدلناها في مرحلة الضغط وفي مرحلة التقية والابتعاد عن المسؤوليات السياسية بالمرجعية، التي تعاطت مع أحكام الأفراد في العبادات والمعاملات ولم تتعاطَ مع مسائل الأمة الكبرى في أغلب الأحيان، لظروف وخصوصيات نقدِّرها ونعرفها جيداً. إلا أن الغرق في مسائل العبادات الفردية قد يبعد تماماً ويوجد فاصلاً حقيقياً عند الأمة بين فهمها للانقياد مع قيادتها الحكيمة وقيامها بالتكليف الشرعي التي تشعر أنها قد أدَّته بمجرد الالتزام بالعبادات والمعاملات. هنا يطرح الإمام الحسين ﷺ المسألة الجوهرية من اللحظة الأولى، هو لم يقل: بأن يزيد غير مؤهَّل ولذلك لا أريد أن أبايعه، بل ذكر أيضاً أنه هو المؤهَّل الذي يستحق أن يكون قائداً: «***ومثلي لا يبايع مثله***»، لأن مسؤولياتي الجسام تفترض عليَّ أن أكون القائد الذي يتمكن من

قيادة هذه المسيرة، بناءً لدور الإمام ومركز الإمام وعصمة الإمام وما عرفناه من شخصيته القادرة على قيادة المسيرة. فالوصية الأولى قبل أن ينطلق المرء هي كيفية اختيار القيادة التي تأخذ بيد الإنسان في المواقف المرتبطة ببناء الدولة، وتشكيل الجماعة والقيادة السياسية ومواجهة أعداء الأمة وتنقية المجتمع من النفاق وإيجاد الخط الإسلامي الأصيل، هذا أمر أساس قبل البداية. كل بداية لا ترتبط بقيادة واضحة يمكن أن تتعرض لأخطار كثيرة عند الابتلاء والاختبار، وكل مسيرة لا تعود إلى وليّ أمرها تكون مربكة وضائعة ومنفصلة عن الجماعة، أو تتشكل هناك جماعات مختلفة، كلٌّ يغني على ليلاه إن لم تُحسم البداية بشكل صحيح.

ثانياً - الرضا بالنتيجة :

الوصية الثانية جاءت عندما جرى النقاش مع أم سلمة زوجة رسول اللهﷺ، التي عرفت بأنه سينطلق وسيترك المدينة المنورة بناء على ما جرى مع الوليد، فأجابها بكلمات معبِّرة «***يا امّاه قد شاء الله عز وجل ان يراني مقتولاً مذبوحاً ظلماً وعدواناً، وقد شاء أن يرى حرمي ورهطي ونسائي مشرَّدين، وأطفالي مذبوحين مظلومين ماسورين مقيدين، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً ولا معيناً***». هذه الكلمات للإمام عليه السلام توحي للوهلة الأولى وكأنها تعبير عن النتيجة التي لا يستطيع أن يواجهها، وعن القدر الذي يتحكم بالمسار، وعن الضرورة التي لا مفرَّ منها. لكن في طيات الكلام معنىً أساس لا بدَّ أن نلتفت إليه في كلمات الإمام وصيته وحديثه مع أم سلمة أم المؤمنين (رض)، حيث نقرأ الرضا بالنتيجة التي عرفها الإمام الحسين عليه السلام قبل أن يُقدم على العمل. فهو لم يتأفف ولم يستنكر ولم يقل شيئاً يعبِّر عن المرارة والأذية الشخصية، استعمل التعابير الدقيقة بقوله: «***شاء الله ان يراني قتيلاً***»، وهو مسلِّم بهذه المشيئة راضٍ بها، ما يعني أن النتائج المترتبة على الموقف يجب أن تكون مقبولة من الداعين إلى الله تعالى ومن الراضين

بمسيرته، لا أن يكون الأمر مرتبطاً بنتيجة دون أخرى، فإذا كان النصر انفرجت أساريرهم، وإذا كانت الشهادة عاشوا حالة المرارة والألم! بل هو قبول بالنتيجة كما أرادها الله سبحانه كجزء من التكليف الشرعي الذي سار عليه الإمام الحسين ﷺ، والذي علّمنا من خلاله أن نقبل النتائج مهما كانت، طالما أننا اخترنا مسار الإسلام، فهذا المسار يتطلب تضحيات وأعمالاً جساماً، وقد يُكلِّف مآسيَ كثيرة تصل إلى الأولاد والأهل، وإلى الذبح والسبي والقتل، وإلى أبشع الأعمال في مواجهة حالة الشرك والانحراف، مع ذلك، على المؤمن في هذه المسيرة أن يكون راضياً قانعاً، فما يحصل لا يقرِّب أجله، ومن يتراجع لا يؤخر أجله، فليكن الرضا بقضاء الله تعالى هو الأمر السائد، من أجل أن يعبِّر الإنسان عن أهليته لهذا التكليف الشرعي وعن قناعته ودوره.

ثالثاً - تحديد الهدف:

قبل أن يغادر الإمام الحسين ﷺ المدينة المنورة كتب كتاباً إلى أخيه محمد بن الحنفية اشتهر بالوصية، ولعل البعض لم يلتفت لماذا كتب الإمام الحسين ﷺ مع أن الحوار جارٍ بينه وبين أخيه، ومع أنه تحدَّث وخطب عدة مرات معه ومع غيره، قبل أن يغادر، وفي كل المحطات التي سار إليها في مكة وأثناء الطريق، والخطب التي ألقاها في كربلاء، كان يتحدث مشافهة أمام الناس ويخطب بينهم لكن هذه الحادثة قد تكون الوحيدة في كل مساره، كتبها كتابة وأودعها لمحمد بن الحنفية ما يعني أن الإمام ﷺ أراد أن يوثق للأمة نصاً يعبِّرعن تحديد الأهداف بدقة، ليطمئن أنها بمفرداتها وكلماتها قد وصلت إلى جميع الناس، وأن مشروع الإمام الحسين ﷺ مبني على ميثاق وأهداف محددة سلفاً ومعروفة تماماً. فلا يقبل الإمام لا التأويل ولا الاحتمالات، هذه الوصية كتبها بخط يده وهي تعالج أمرين أساسيين: الأول تحدِّد الأهداف، والثاني تتعاطى مع كيفية استجابة الأمة

لهذه الوصية، وتحدِّد موقفه من الاستجابة أو عدمها، هو لم يضع أهدافاً مجردة وإنما وضع الأهداف ووضع الاحتمالات التي يمكن أن تجري وحدَّد موقفه من كل نتيجة من النتائج التي يمكن أن تحصل، معتبراً بأن الأهداف تتحقق على كل حال، سواء حصلت الاستجابة من الأمة أم لم تحصل.

قال في وصيته: " ***بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية، إن الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الله، وأن الجنة حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.. إني لم أخرج اشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، أريد ان آمر بالمعروف وانهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وابي علي، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق***" ، خرج الإمام للإصلاح في الأمة، هذا الإصلاح يتطلب أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر؛ أي يتطلب التصدي، أما السبيل إلى ذلك فهو سيرة محمد وعلي عليهما السلام، وبالتالي نجد أن الإمام قد حدَّد أهداف حركته بإجراء عملية إصلاحية في واقع الأمة، مستنداً إلى القرآن الكريم كإطار نظري، وإلى السيرة النبوية الشريفة ومواقف الإمام علي عليه السلام، ليقدِّم للأمة نموذجاً في الإصلاح. كيف ستتعاطى الأمة؟ أكمل الإمام قوله: "***فمن قبلني بقبول الحق فالله اولى بالحق***" الذي يقبلني يعمل مع الله، "***ومن ردّ عليّ هذا اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين***" ؛ أي أن الإمام طرح الاحتمالين أو النتيجتين: إما أن يستجيب الناس وهذا يعني أنهم استجابوا لدين الله وكانوا مع الله، وإما أن لا يستجيب الناس فلن يثنيني هذا الأمر يا أخي عن عزمي، "***وهذه وصيتي إليك وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه انيب***" .

الوصية إذاً، تحدد أهداف التحرك، الإصلاح في الأمة والنتيجة المتوقعة

قد تكون إيجابية وقد تكون سلبية، لا علاقة للنتيجة المادية بالأهداف، لأن الإمام يعتبر بأن الأهداف تتحقق بمجرد حركته وقيامه سواء وافقه الناس أو خالفه الناس، هذا ما أراد إيصاله إلينا وتعريف الأمة عنه. قال تعالى: **﴿قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾**، على قاعدة التسليم المسبق بما أمر الله به تعالى والرغبة الأكيدة للعمل بشريعة الله المقدَّسة.

رابعاً - تثمير الموقف :

عندما وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة المكرَّمة عرف أخوه محمد ابن الحنفية بأنه يريد أن ينتقل من مكة باتجاه الكوفة استجابة لكتب أهل الكوفة، لكن محمد بن الحنفية لم يكن مطمئناً لذلك، واعتبر خروج الإمام سلام الله عليه خطراً عليه، فجاءه ناصحاً لمنعه من الخروج، على الأقل أن يبقى في مكة المكرَّمة أو أن يذهب إلى مكان يجد فيه استجابة مباشرة. وكان تركيز ابن الحنفية على بقاء الإمام في مكة المكرَّمة بأنه يشكِّل له حصانة لأنه في جوار الكعبة، ومن الصعب أن ترتكب الأعمال الشنيعة هناك، فهي حماية بشكل أو بآخر لحركة الإمام الحسين عليه السلام. أجابه الإمام: ***«يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية في الحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت»***، يدل التعبير من الإمام بشكل واضح بأنه يريد أن يتجنب نتيجة لا يريدها. لا يريد أن يُقتل في الحرم، ولا يريد أن يستباح دمه في الحرم، ولا يريد أن تصبح القضية في محل آخر، قضيته ليست أن يحافظ على نفسه هناك ولا يتمسك بإمكانية الحماية من خلال بيت الله المقدَّس، لأن هذا البيت قد يُنتهك. وبالتالي مع اغتياله في الحرم أو قتله هناك ستكون النتيجة الطبيعية بأن يتحرك الحاكم ليعطي تفسيرات مختلفة عن معركة الإمام بسبب المكان والتوقيت، فيكون الإمام قد خسر النتيجة التي يرغبها والتي أرادها من خلال حركته ومساره. من هنا رفض الإمام نصائح أولئك الذين دعوه ليبقى في مكة، ورفض أن يُقتل في مكان لا

يؤدي إلى النتيجة المرجوة، فهو يمكن أن يُقتل في الحرم ثم تقول الدولة آنذاك: بأن قاتله شخص مستنكر فيقتلونه حتى لو كلَّفوه بالقتل، تحت عنوان الانتقام للإمام الحسين ﷺ، عندها يصبح مقتولاً كفرد من دون قضية، يُقتل قاتله ويُقفل الملف بشكل كامل. فبدل أن تكون القضية قضية إصلاح في الأمة، تتحوّل إلى مسألة شخصية لها علاقة بقتل وقتل للقاتل ما يُبعد الإمام ﷺ عن تحقيق أهدافه، ولذا غادر مكة المكرَّمة في يوم التروية لأنه كان معتقداً أن بقاءه بين هذا العدد الكبير قد يضيع دمه بشكل سهل تحت عنوان الفوضى وعدم الضبط، وهي عناوين يمكن أن يطلقها الحاكم بشكل سهل. إذاً، أراد الإمام ﷺ من خلال كلمته أن يقول للأمة: بأن تمايز الموقف يجب أن يكون حاضراً في حركة القيادة وفي حركة الناس، ولا يصح أن يترك الإنسان الخيار ليتحكم الآخرون به، بل يجب أن يكون الخيار بيد صاحب المبادرة، لينطلق في الوقت المناسب وإلى المكان المناسب وفي الزمان المناسب كي يحقق الأهداف، وبطبيعة الحال لا يستطيع القائد أن يحدِّد كل التفاصيل بدقة، هناك جزء من الأحداث يكون بيده والجزء الآخر لا يكون بيده، عليه أن يستفيد مما يستطيع توقيته والتحكم فيه بشكل مباشر.

خامساً - مسؤولية الأمة :

حدّد الإمام ووضح مسؤولية الأمة، هذه الأمة يجب أن تتعرف على الحق وتسير في ركابه، قال الإمام ﷺ: ***"لامحيص عن يوم خطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجور الصابرين، لن تشذ على رسول الله لُحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقر بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى"***.

وضّح الإمام للأمة بأنها مسؤولة وعليها أن تختار، لا يستطيع الناس

عزل أنفسهم عن المسؤولية، ولا يستطيع الناس التنكر لواجبهم في الاختيار. أيها الناس إذا أردتم طريق الاستقامة فالأمر واضح «***رضا الله رضانا اهل البيت***»، وبالتالي من أراد أن يحقق رضوان الله، عليه أن يسير على خط أهل البيت عليهم السلام. وإذا لم يذهب الناس معنا، فمعنى ذلك أنهم أخطأوا الاختيار، وأنهم ساروا في طريق منحرف، فرضا الله تعالى في هذا المسار، «***من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا***»، لا يستطيع الإنسان أن يدّعي أنه مع الله ثم لا يكون مع أهل البيت عليهم السلام، ولا أن يُعلن المبايعة ثم لا يتحمل مسؤوليته في ذلك، وأن يتحمل الصعوبات والدماء وما يمكن أن ينتج من هذا الاختيار. هذا الخط يبيِّن أن الأمة مسؤولة وقد وضَّح الإمام عليه السلام بما لا لُبس فيه مسؤولية الأمة في ذلك، وكيف تختار، وأن هذا الاختيار محكوم بنتائج محددة نراها بشكل مباشر من خلال السير مع أهل البيت عليهم السلام.

سادساً - كشف النفاق والمنافقين:

لا يمكن أن تسير المسيرة من دون أن يتم كشف وتقديم التوضيحات لهؤلاء السائرين على هذا الطريق، وقد لاحظنا من بعض كلمات الإمام عليه السلام أنه كان قاسياً عليهم وكان واضحاً في آن معاً، خاطبهم بشكل مباشر، أراد أن يضعهم أمام المسؤولية بشكل مباشر. قال عندما أنهى صلاة العصر وكان مع جيش الحر الرياحي قبل أن يحضر عمر بن سعد فيما بعد، قال: " ***أما بعد أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أبيتم إلا الكراهية لنا والجهل بحقنا، وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت عليَّ به رسلكم، انصرفت عنكم***" . عندما عرض عليه السلام عليهم الانصراف كان يعلم بأن هذه الرسالة لن تصل فقط إلى هؤلاء، بل ستصل إلى من يأتي بعدهم، هذه

الرسالة توضح أن الإمام لم يكن راغباً بالقتال من أجل القتال، ليس هدفه قتالهم فهم الذين أمرهم ابن زياد وجاء بهم إلى هنا، بل هدفه طرح التغيير الإسلامي. إذا كانوا هم الأدوات لقتاله فهو لا يريد أن يقاتلهم لأنه لا يريد الأدوات، فدعوته عليه السلام للانصراف عنهم ليست هروباً من المسؤولية ولا من المعركة، إنما هي كشفٌ لهم أنهم منافقون وأنهم سائرون في الطريق الخاطئ وأنهم خالفوا كتبهم، وأصبحوا أعواناً للظلمة، فهو يريد أن يحمِّلهم مسؤوليتهم ويكشف زيفهم في آن معاً ويفضح أمام التاريخ أن هؤلاء لم يكتفوا بعدم الالتزام بما كتبوا، بل دخلوا إلى المعسكر الآخر حيث برز نفاقهم بشكل عملي من خلال أدائهم.

سابعاً - تحديد التكليف الشرعي:

ما هو التكليف الشرعي؟ وما هي الخطة التفصيلية المباشرة التي انطلق من خلالها إمامنا الحسين عليه السلام؟ في موقع على الطريق اسمه (البيضة) يقع في مسار الإمام عليه السلام بين مكة وكربلاء، اجتمع مع جماعة الحر فقال: ***"ايها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مُدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطَّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيَّر"***. تكليفكم الشرعي أيها الناس أن تقاتلوا هذا الحاكم الظالم، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: ***"من رأى سلطاناً جائراً..."***، وهو قد ذكر هذه الرواية لأنهم كمسلمين لا بدَّ أن يلتزموا بشريعة الله المقدّسة ويفترض منهم أن يلتزموا بها، ومن الطبيعي أن تكون الآيات والروايات هي المقياس عندكم، فارتأى الإمام عليه السلام أن يستحضر حديثاً شريفاً يضعه أمامهم، ثم يطبِّق هذا الحديث بشكل عملي على الواقع الموجود، بحيث يكون

المخالف من الذين (لزموا طاعة الشيطان) بشكل مخالف لوصية النبيﷺ.

ثامناً - الحق هو المقياس وليس الحياة:

هنا نقاش كبير بين علماء المسلمين، هل أن وجود الأمة ووجود المسلمين ومصلحة حياة الأفراد مقدمة أم أن حياة العقيدة وسلامة الالتزام وبقاء الشريعة هو المقدَّم، هذا النقاش، حسمه بالإجمال الإمام الحسين عليه السلام عندما ذكر في (ذي حُسُم): ***"الا ترون بأن الحق لا يُعمل به وان الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا ارى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً"*** . حدَّد الإمام المقاييس التي تتطلب دقة في التعاطي معها، فعندما لا يُعمل بالحق ولا يُتناهى عن الباطل لا بدَّ أن يبرز القائد وتبرز الجماعة للمواجهة، الأولوية هنا لنصرة الدين ولو أدى ذلك إلى موت لهذه الجماعة، وهذا مؤشر أساس لفترة أو توقيت التحرك، وهذا ما يفسِّر كيف انتفض وتحرَّك الإمام الحسين عليه السلام ولم يحصل ذلك مع الإمام الحسن عليه السلام، ففي عهد حكم معاوية كانت الأسس في الدولة الاسلامية موجودة ويمكن البناء عليها، وأما مع يزيد فقد انسدت الآفاق وأصبح الخطر على العقيدة كبيراً، يؤكد الإمام أن المحافظة على سيادة الحق هي المقياس وليست الحياة، فعلينا أن نبحث عن بقاء الحق وبقاء راية الإسلام لا أن نبحث عن حياتنا المادية الزائلة.

تاسعاً - أخلاقية الإسلام :

أظهرالامام أخلاقية الاسلام في المعركة، فأعطى نموذجاً رائداً مع الأصحاب المنسجمين الذين أدوا هذه المهمة الكبرى، وذكَّر مراراً بأسس العقيدة، فلم يمنع عنهم الماء بل قدّمه لهم ، ولم يتوقف عن وعظهم بالحكمة والموعظة الحسنة ليعودوا إلى رشدهم ، ولم يبدأهم بالقتال ومنع أصحابه أن يبدأوهم ، وتحمل معاناة المواجهة مع الأهل والأصحاب طاعة لله تعالى، فكان خير قائد وسيداً للشهداء ، وكان أصحابه خيرة المضحين

والمستقيمين.

هذا غيض من فيض مواقف الإمام الحسين عليه السلام، ذكرتها متسلسلة في أحداثها أثناء الطريق ، محاولاً الاستفادة منها لاستخلاص بعض من منهجية الإمام في معركته الكبرى ضد الباطل : كربلاء .

والحمد لله رب العالمين

سماحة الشيخ نعيم قاسم



الأسرة المسلمة في الثقافة العاشورائية

الأسرة المسلمة في الثقافة العاشورائية

من أهم ما يميز مدرسة كربلاء وعاشوراء أننا نستطيع أن نستفيد منها دروساً في شتى مجالات الحياة، عكس ما يمكن أن يتصوره الإنسان بأن دروس عاشوراء منحصرة في جانب من جوانب الحياة أو في الجانب الثوري، الجهادي أو ما شابه.

أنا أتوجه بالشكر للأخوة العاملين في المعهد ولسماحة الشيخ شفيق لتكليفي بإعداد بحث حول الأسرة المسلمة في المسيرة العاشورائية، الأمر الذي تطلب مني مراجعة السيرة والأحداث الكربلائية من أجل الاستفادة بأفكار تخص الأسرة، وللوهلة الأولى تصورت أنني لن أجد مادة أستطيع الحديث بها (كافية) عن عاشوراء، ولكن عندما تأملت المعلومات الموجودة من خلال السيرة والحديث وجدت أن المادة الموجودة أكثر بكثير من الوقت المتاح للحديث، أسأل الله سبحانه أن أوفق لنقل شيء من هذه الأفكار وسوف اقدِّم ورقة عمل وأتمنى من الأخوة والأخوات المهتمين بالشأن التربوي أن يفيدوني بمناقشاتهم وتعليقاتهم على هذه الورقة.

من خلال التأمل في النصوص التي وردت عن المتحدثين في كربلاء أثناء المسيرة، قبل المعركة، وبعدها، ومن خلال التأمل في السيرة للمشاركين في هذه المسيرة المقدسة استطعت أن أستفيد أفكاراً حول الأسرة، وارتأيت أن أقدمها تحت عنوانين:

الأول: ميزات الأسرة المسلمة الكربلائية.

الثاني: القواعد التي يمكن أن نستفيدها للعمل التربوي داخل الأسرة. (تربية الأبناء).

ميزات الأسرة المسلمة الكربلائية:

آثرت وضع الأسرة المسلمة الكربلائية، لأن هذه الميزات التي رأيتها من خلال مسيرة عاشوراء هل هي الحد المطلوب من جميع الأسر الإسلامية أم أنها شيء تميزت به أُسر الذين شاركوا في هذه المسيرة الكربلائية ويبقى علينا أن نقترب قدر الإمكان، استطعت أن أتلمّس أربع ميزات للأسرة الكربلائية:

الأولى: هي على صعيد الهدف من تأسيس الأسرة، فلاحظت أن الهدف من تأسيس الأسرة الكربلائية يتم من أجل أهداف أعلى من الأهداف الفطرية الغرائزية الاعتيادية، بشكل عام، أي شاب وأي فتاة لهم دافع نحو تأسيس الأسرة بدافع الحاجات الغرائزية المباشرة التي نقصد بها مثلاً؛ الحاجات المتصلة بالغريزة الجنسية والتي تدفع كل شاب وكل فتاة للتفتيش عن الشريك والاقتران به من الجنس الآخر، أيضاً حب البقاء وحب الامتداد والتي يمكن أن تختلط ببعض جوانبها بحب التملك، وكلها حاجات فطرية أولية عند الإنسان يشترك حتى فيها في بعض جوانبها مع الحيوان، تدفع كل فرد وكل زوج لإنجاب الأبناء من أجل إكفاء هذه الحاجة.

لاحظت أن الأسرة الكربلائية تأسست من أجل أهداف هي أعلى من هذه الأهداف؛ مع أني لا أقصد أن الأهداف التي ذكرتها لا سمح الله هابطة أو لا تستحق أن تحترم. ولكن هناك أهداف من مستوى أعلى وهي أيضاً أهداف فطرية تتعلق بالحاجة للتكامل وبالحاجة للخلافة الإلهية، حينما تتضارب هاتان الحاجتان تستطيع الأسرة أن تضحي بالأهداف الغرائزية المباشرة لصالح الأهداف الفطرية العالية، وهذا الشيء كان واضحاً جداً في كربلاء.

ومثال لنا نأخذه أسرة حبيب بن مظاهر رضي الله عنه الذي كان مصمماً على نصرة الإمام الحسين عليه السلام ولكنه لم يفصح في هذا الأمر لزوجته كما تروي لنا السيرة، والملفت بأن حبيباً لم يأت ولم يتحدث بهذا الأمر مع زوجته

ولكن، هي التي بادأته بالحديث فسألت: سمعت بأن الحسين نزل قريباً من الكوفة ومن الغريب أنك لم تجهِّز العدة لنصرة الحسين، ولكنه أجاب زوجته بأنه: إن أنا ذهبت يتيتم أولادي وتفتقدينني، فتجيبه: دعنا نمتص الحصى ونأكل التراب واذهب لنصرة ابن بنت رسول الله، هذه الإنسانة كان لها طموح لحاجات فطرية من نوع أعلى، كانت مستعدة أن تضحي بحاجتها الغرائزية الفطرية لوجود الشريك الآخر بجانبها ومن يعيل أولادها ويحفظهم، ضحت بذلك لصالح حاجات هي من مستوى أعلى.

ومثال آخر: أم عمر بن جنادة الخزرجي، كان لها ولد اسمه عمر لم يكن قد تجاوز الإحدى عشرة سنة، بعد استشهاد والده، هي التي نادته وطلبت منه أن يذهب ليقاتل بين يدي الإمام الحسين تخطت حاجة الاستئناس بالولد والامتداد بالولد في سبيل حاجة من مستوى أعلى، وهو الذي ميَّز الأسرة الكربلائية عن الأسرة الكوفية العادية، عندما كانت كل زوجة تذهب وتطالب زوجها بأن دعنا ما لنا والسلاطين، لا تثكلني ولا تيتم أولادي...

الميزة الثانية التي ألاحظها من خلال السيرة العاشورائية وهي مرتبطة بالميزة الأولى، وتعتبر امتداداً طبيعياً لها، وهي على صعيد اختيار المؤسسين لهذه الأسرة. فقد تم اختيار مؤسسيها بعد تفكير ودراسة، لا عن طريق المزاجية والصدفة وما نسميه بالاستلطاف.

لكل شاب دافع فطري لاستلطاف فتاة ما لتكون شريكته، كذلك المرأة عندها هذا الاستعداد لكن من يختار؟

إذا كان الهدف من تأسيس الأسرة هو مجرد الأهداف الفطرية الغرائزية، الاختيار يتجه نحو من يعتقد الإنسان بأنه يشبع هذه الحاجة عنده بمستواه الأعلى، فإن كان هو يحب حياة مترفة يمكن أن يفكر بالمال، وإذا كان يحب الجمال يمكن أن يفكر بالجمال سوف يتجه باتجاه المقاييس والاستلطاف يحصل نتيجة إحساسات سابقة موجودة غي الرأس، عندما يلتقي بأول فتاة يعتقد بأنها تجسد فتاة أحلامه سوف يعتقد بأنه أحبها

وسوف يتجه باتجاه بناء أسرة معها، وكذلك العكس، ولكن عندما تكون المسألة تتعلق بتكوين أسرة لتحقق أهدافاً أعلى، على مستوى خلافة الله على مستوى الأرض، فالشاب أو الفتاة الموجود عندهم هذا الهدف سوف يدرسون خياراتهم بطريقة أدق بكثير وبعيدة عن المشاعر الأولية، وعما يسمى بالحب وغيره.

وسوف آخذ شاهداً حسينياً كانتقاء السيدة خديجة عليها السلام لرسول الله ﷺ كزوج وانتقاء الرسول لخديجة كزوجة، أو انتقاء أمير المؤمنين للزهراء عليها السلام أو انتقاء الزهراء لأمير المؤمنين، لم يتم على أساس النظرة الأولى أو الاستلطاف أو بمحض الصدفة، إنما كان بعد تفكير ودراسة، أما عن السيرة الكربلائية فيمكننا أن نستشهد بزواج أمير المؤمنين عليه السلام من أم البنين عليها السلام، عندما أوصى عمه وأقرباءه بانتقاء له امرأة من قوم يتصفون بصفات معينة، قال: أريد أن أنجب منها ولداً يكون ناصراً لولدي الحسين عليه السلام في كربلاء، كان الانتقاء مدروساً وبعد تأمل وتفكر.

الميزة الثالثة التي أعتقد أنها تظهر من خلال المسيرة العاشورائية، هي على صعيد الأداء والتعامل داخل هذه الأسرة. وهذا الموضوع الذي أحب التوسع فيه.

أعتقد أن مؤسسي الأسرة العاشورائية ينظرون إلى الأسرة على أنها الساحة الأولى التي يمكنهم من خلالها بدء سيرهم التكاملي نحو الله سبحانه وتعالى، أو فلنقل: الساحة الأساسية التي يمكنهم أن يتدربوا فيها عملياً على التقوى.

التقوى كشعار يمكن التحدث عنها، ولكن كتطبيق لا يمكن أن يتم إلا من خلال امتحان وعلاقات. عندما يقول الله سبحانه: **﴿يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** إشارة حقيقية على أنّ اختبار التقوى لا يتم إلا من خلال

الحياة الإنسانية والتعامل الإنساني الذي يبدأ بالعائلة ويتدرج إلى المجتمع بأكمله، أيضاً يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيها رجالاً كثيراً ونساء اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾**.

إشارات واضحة إلى أن السير التكاملي باختبار التقوى لا يتم حقيقة إلا من خلال الحياة الأسرية، والشهيد مطهري يقول: إن الزواج هو ركن أساسي في السير التكاملي إلى الله سبحانه وتعالى. لذا يجب أن ينظر إليه بإيجابية مقابل الرهبنة، وهي ليست السير الحقيقي التكاملي باتجاه الله سبحانه وتعالى.

ما أعتقده أن التقوى تقتضي التفكير بالواجب اتجاه الآخر أكثر من التفكير بواجب الآخر اتجاهي، ومسألة التقوى تقتضي التفكير بالواجب قبل التفكير بالحق، ***«خيركم خيركم لأهله وانا خيركم لأهله»***، ما أريد قوله: إن هناك ثقافتين، الحديث الذي يقول: "قد يكتب الإنسان جباراً ولا يملك إلا أهله"، الجبابرة لم يكونوا ممدوحين في القرآن. النظرة إلى الأداء داخل الأسرة تختلف تماماً إذا كانت الثقافة ثقافة العطاء أو ثقافة الأخذ، وثقافة أخذ الحق عبر المبادرة بإعطاء الحق وليست ثقافة التمنّع عن إعطاء الحق إلا بعد أخذه. من الطبيعي أن يحصل الإنسان على حقه ولكن كيف أحصل عليه؟ أن آخذ حقي عبر إعطاء حق الآخر شيء، وأن امتنع عن إعطاء حق الآخر قبل أن آخذ حقي شيء آخر.

الزوج الذي ينظر للقيومية على أنها فرصة لإدارة أسرة يُسعدها فرق عن إدارة أسرة تُسعده فرق كبير. العلاقة عندما تكون تنافساً بين من يُسعد الآخر أكثر، هذه هي الأرضية الوحيدة التي نستطيع أن نفهم من خلالها كيف تصبح الحياة الزوجية إحدى البراهين على وجود الله سبحانه **﴿وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**.

أنا أجد بأن الأسرة الكربلائية العاشورائية تجلت فيها هذه المسألة بأعلى صورها، هناك يكون عندما مستوى عالٍ من العطاء والتفاني من أجل الأسرة بعضها البعض، هذا الشيء لم يصبح عادة وسجية وسعادة إلا لأن هذا الإنسان تربى في ظل قطبين، والدين جسدا هذا العطاء أمام الأولاد.

نحن نشتكي بأن أولادنا يقسون علينا، أنا أتصور أننا لم نعطهم الحب الكافي، لم يروا أمامهم أباً يتفانى لإسعاد أم، وأماً تتفانى لإسعاد أب، ومشاعر التفاني والعطاء بحب لم تتولد وتُبنَ وتؤسس داخل هذا القلب عند الولد، والذي سيصبح مستقبلاً أب المستقبل وأم المستقبل، والقلوب باتجاه القسوة والتي ولّدتها ثقافة السؤال عن الحق وليس السؤال عن الواجب، يفترض أن يُعطى للزوجة حقها وللزوج حقه ليتولد التفاني والعطاء، عندنا اليوم جيل من البنات متمرد على سلوك أمه ويقول لها: أنت من جعلت أبي يفعل فيك كذا وكذا. لأنهم يرون عطاءً ناتجاً من قهر واستغلال لم يروا عطاءً بحب، أعتقد بأن المرأة هي إنسان يجسد المظاهر الجمالية لله عز وجل، وهي مستعدة أن تعطي كثيراً إذا كان احترم هذا الجمال عندها وهذه الأحاسيس عندها، وبالقهر تتحول من مظهر لجمال الله إلى مظهر لجلاله، وهذا خلاف فطرتها وخلاف المطلوب، والمسؤول طبعاً كلا الجنسين الرجل والمرأة، ولأن الرجل هو رأس الأسرة فالمبادرة يجب أن تأتي من عنده، فله القيومية لهذه الأسرة.

في عاشوراء، ذاك الحب الذي تتبادله زينب عليها السلام مع الحسين والعباس حب غير طبيعي، أن يصل العباس عليه السلام إلى المشرعة ويحمل الماء ثم يرميه ويقول: " يا نفس من بعد الحسين هوني" وليس تكليفاً شرعياً، كنت لفترة طويلة أقول: إن هذا التصرف لم يكن صحيحاً، لو أنه شرب لاستقوى على مقاومة الأعداء أكثر، ولكني لم أكن أفهم ذلك الحب الموجود داخله، هو لم يصطنع هذا العمل، فهو لا يستطيع الشرب وأخوه عطشان فهو مجبول على الحب. لكن من أين أتى هذا الحب؟ من مشاهد أروع رآها وتعلّم منها، كذلك

عندما نرى أن عبد الله بن الحسن وهو لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، وتروي الرواية أنه آخر من استشهد من أولاد الإمام الحسينعليه السلام، أنه هذا الفتى كان مع النساء ولم يأخذ الإذن بالبراز ولم يكن وارداً أن يُعطى الإذن بالبراز؛ لكنه عندما رأى عمه الحسين يتعرض للقتل لم يتحمل ذلك، فخرج ليصد عنه بحركة تلقائية ناتجة عن حب حقيقي مبني على العطاء، الأسرة العاشورائية أعضاؤها يتصرفون من خلال إسعاد الآخر. الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: عندما كنت أجلس بحضور والدتي لم أكن أتجرأ أن أمدَّ يدي لآكل شيئاً من أمامها، لعلها كانت تنوي أن تمد يدها إلى الشيء نفسه. هل تختلف هذه التربية عما عندنا في الأحاديث (أحب لأخيك ما تحبه لنفسك)؟ إذا طبق كل واحد في الأسرة الزوج والزوجة هذه المسألة حُلَّت المشكلة، وبالتالي الأولاد أيضاً سيتحلون بهذه المسألة.

النقطة الأخيرة من ميزات الأسرة الكربلائية، بأن عناصرها يتقنون إدراك فن العملية التربوية، العملية التربوية تحتاج إلى آليات ومبادئ وإعداد، من لا يملك الصبر لا يحتاج إلى أن يربيه، وقد تجلى هذا الشيء بالنماذج التي وجدت في كربلاء لأنها لم تكن فقط تتحلى بالحب والشجاعة، النماذج التي وجدت في كربلاء كانت بذروة العلم الموجود في عصرهم، كانت تمتلك خبرات في شتى خبرات الحياة التي كانت موجودة في حياتهم، خبرات القتال والسفر والتعاون في الحياة الاجتماعية الشاقة وفيها بعد عن الأوطان. أصحاب الحسين عليه السلام كانوا معروفين بأنهم أصحاب القرآن والعلوم، لم يكن أحد فيهم غوغائيا وجاهلاً وغير مدرك بما يفعل، على العكس. بما كان في معسكر عمر بن سعد الذين كانوا يجيبون الإمام الحسين عليه السلام بأنه لا نفقه ما تقول. لقد كان مؤسسو الأسرة الكربلائية يدركون أسرار وقواعد العملية التربوية. أعتقد أن هذا هو ما يميز الأسرة

الكربلائية.

أتمنى من الأخوات المهتمات بالعملية التربوية وأتمنى منهن أن يُفدنني بأفكارهنَّ ونقاشاتهنَّ، ويمكن الاستفادة من الأسرة العاشورائية وسأكتفي فقط بتعداد القواعد. النص عنيت به قول الإمام الحسين ﵇: ***"الا وان الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس ابية من ان نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام"*** .

لقد حددا أن التربية انطلقت من حجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية، ومن خلال ما لاحظته من السيرة العملية لأبطال كربلاء أستطيع أن أستنتج ست قواعد سوف أذكرها دون أي استشهاد حولها:

١- لا بدَّ من الالتفات لإعداد يسبق الاقتران والإنجاب، ويُكمل العمل بعد الإنجاب الذي هو «طيب الأعراق».

٢- طهارة النسب والنشأة.

٣- التربية الإيمانية منذ الصغر.

٤- المبالغة في التعليم والتأديب والتدريب.

٥- إظهار الحب والتقدير.

٦- التأديب مع الاحتفاظ والكرامة أو التعامل باحترام.

طيب الأعراق، قاعدة عندنا، طهارة النسب والنشأة، هناك طهارة مادية وهناك طهارة معنوية، وكلاهما مطلوب، التربية الإيمانية منذ الصغر وهي مسألة في محل خلاف بين التربية الإسلامية والتربية الغربية، ونستطيع أن نستدل عليها بأمور كثيرة جداً.

المبالغة في التعليم والتأديب. المبالغة بشكل مكثَّف من قبل الوالدين، إما هم يتولون مباشرة وإما من قبل الواسطة التعليم والتدريب، ولا يعتبر التعليم

تعليماً والعلم علماً إلا إذا تحوّل لسلوك ولكن بشكل عام يفهم الناس من التعليم أنه فقط اكتساب المفاهيم.

إظهار الحب والتقدير للولد. والتأديب مع الكرامة، نحن بهذه العملية بحاجة لإعداد، وحياة اليوم أعقد من حياة الأمس، لها آليات أذكى من الآليات السابقة، ومن أرادوا اليوم أن يؤسسوا أسرة لا بدَّ لهم أن يتلقوا دورات للتربية، قبل أن يقدموا على هذا العمل حتى لا تكون هذه الأسرة مدعاة لتراجعهم التكاملي وتراجع أولادهم.

والحمد لله رب العالمين

الحاجة أميرة برغل

عاشوراء في خطاب المقاومة الإسلامية

قراءة

في كتاب خطاب عاشوراء

عاشوراء في خطاب المقاومة الإسلامية
قراءة في كتاب خطاب عاشوراء

"عاشوراء في خطاب المقاومة الإسلامية" عنوان قائم على ثلاثة مصطلحات، يبدو اثنان منهما بديهيين. فعاشوراء ذاكرة إسلامية عصية على الزمان، والمقاومة فعل إسلامي مرتبط بغير آصرة بتلك الذاكرة. والبداهة في التعامل مع مصطلح من المصطلحات لا تعني الإمساك بكل إمكاناته وكل الاحتمالات القائمة فيه. ولو كان الأمر كذلك لما احتجنا إلى خطاب يتناول ذينك المصطلحين بالتدقيق والتحليل والكشف عما ينطوي فيهما من أبعاد. وإذا تكفَّل الخطاب بإماطة اللثام عن تلك الأبعاد، فما الخطاب؟

رأى بنفنست أن الخطاب "كل تلفُّظ يفترض متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[1] . ويعني ذلك أن الخطاب عملية تواصل بين طرفين متراتبين، وأن يهدف الأول إلى التأثير على الثاني، يعني أن الأول يمتلك وعياً ومعرفة لا يمتلكها الثاني - المتكلِّم - ولا ينفصل هدف التأثير عن الشعور بالمسؤولية الذي يتملك حيال المتلقي، والشعور بالمسؤولية لا يتأتّى إلا عن ثقافة لها موقعها داخل حركة التاريخ الحديث. وخطاب المسؤول، ككل خطاب له بعدان:

البعد الأول هو الرؤية إلى العالم. وحين تكون هذه الرؤية رؤية المسؤول لا بدَّ من أن تأتي مميزة بكل مكوِّناتها: ثقافة وقناعات، وهموماً،

واهتمامات.

والبعد الثاني هو لغة ذلك الخطاب التي تكون بمعجمها، وتراكيبها، ومجازها، ورموزها، وشيفراتها الثقافية محدَّدة ومحكومة بتلك الرؤية.

وحين يتحدّد الخطاب ويتميَّز بالرؤية واللغة يصبح النظر إلى عاشوراء من خلال خطاب المقاومة الإسلامية مسألة نقدية بشكل أساسي... وتصبح المدوَّنة التي نبحث من خلالها عن موضوعنا أمراً حساساً يساعد الباحث أو يعوِّقه عن مراميه. "وخطاب عاشوراء" لسماحة الأمين العام، والذي هو عبارة عن تلك الكلمات التي أحيى بها سماحته ليالي عاشوراء عبر ثلاثة أعوام هي العام ١٩٩٧،١٩٩٨،١٩٩٩، أعوامَ عشية الانتصار التاريخي المؤزَّر، هو خطاب غير عادي عامرٌ بحساسية أدبية، سياسية، ثقافية، لا يضاهيها فيه سوى الحساسية التاريخية. ويؤهله كل ذلك ليكون نصاً بالغ الأهمية رؤية ولغة، وعاشوراء فيه ليست جزءاً من ثقافة المتحدِّث فحسب، ولكنها موضوع الخطاب أيضاً. ولذلك فإن البحث عن عاشوراء يصبح أكثر سهولة. والسهولة يفرضها المنهج الموضوعاني الذي يحول دون أن يبرز الباحث فيه قدراته النقدية. على العكس تماماً كما لو كانت المدَّونة المدروسة قائمة على كلمات موضوعها المصطلح الثاني (المقاومة الإسلامية).

أضف إلى ذلك أن هذا الخطاب موجه إلى جمهور متنوع يفترض أن يتحدَّث سماحته بلغة هذا الجمهور[٢]. ويؤثر هذا الأمر على أدبية الخطاب الذي يندرج داخل دائرة الكلام الشفوي الذي يحرص على أن يكون أحاديّ الدلالة. وفي ذلك اختلاف كبير عن الكلام الكتابي الذي يحتمل دلالة جديدة عند كل متلق جديد. ويؤدي ذلك إلى تفاوت بيِّنٍ في الأدبية التي هي قوام العملية النقدية.

ومهما يكن من أمر، فإن قراءة "خطاب عاشوراء" لسماحة الأمين العام كفيلة بتقديم رؤية سماحته إلى العالم (عاشوراء)، تلك الرؤية الثاقبة التي

قادت إلى الانتصار، وكفيلة أيضاً بإبراز لغة متناسبة، في مستوى من المستويات، مع تلك المسؤولية العظيمة.

وما دام الخطاب خطاب عاشوراء، والموضوعُ موضوعها صار السؤال البديهي: كيف وعى خطاب السيد عاشوراء بوصفه خطاب المقاومة الإسلامية النموذجي؟

وعي عاشوراء في خطاب المقاومة:

لم تكن تسميةُ حدثِ شهادة الحسين وأهل بيته عليهم السلام باسمين: أحدهما: زمني (عاشوراء)، والآخر مكاني (كربلاء) قائمةً على المصادفة.

فالتسميتان علمان على الحدث لا تحتاجان إلى إضافة أو وصف لكي تتحدَّدا. ولا يمكننا أن نفقه سر ذلك ما لم نحظ بأبعاد ذلك الحدث الذي بات معلماً زمانياً مكانياً في آن معاً. ولقد قطع خطاب السيد شوطاً واسعاً في مجال تلك الإحاطة. والخطاب لم يصف تلك الحادثة بأنها حادثة إلهية[٣]. أولاً وقبل أي وصف آخر إلا لأن هذه الصفة صفة متمكنة من ذلك الحدث، تعطيه هويته الأساسية. فالتوجه إلى كربلاء امتثال لأمر الله تعالى، وقمة في العبودية [٤]، وما جرى هناك من ألفه إلى يائه، وبكل تفاصيله ناجم عن "تخطيط إلهي دقيق ومحكم"[٥]؛ ولذلك كانت نتائجه غير عادية بالنسبة إلى حياة المسلمين وتاريخهم. فدم الحسين عليه السلام قد حفظ رسالات ربه[٦]، وحال دون أن يحقق يزيد "مشروعه الجاهلي الطاغوتي المحارب لله ورسوله"[٧]؛ ولذلك فإنه ليس بإمكاننا، كما يرى سماحته، أن ندرس هذا الحدث وفاق المناهج الاجتماعية، أو الفكرية، أو السياسية الحديثة، كما لا يجوز لنا أن نستخدم لغة اليسار في الحديث عنها فنقول: إن حركة الحسين عليه السلام "حركة ثورية متقدمة في حياة الأمة"[٨]؛ لأن حسابات هذه اللغة وتلك المناهج التي تصطنع العلمية ميزاناً تقيس به مقادير الخسارة والربح لا يمكنها أن تلتقط أسرار الربح الوفير الكامنة في شهادة الحسين عليه السلام. لا

تُلتقط تلك الأسرار إلا بالقول: " إنها حركة دينيةٌ إسلاميةُ... الدوافع والخلفيات[٩]، خصوصاً أن مفاعيل ذلك الدم ليست على عجلة من أمرها، ولا بدَّ من أن تضيق العلمية ذرعاً بانتظار حدوثها. وتبقى صفة الإلهية الصفة الأقوى في توضيح أبعاد تلك الحادثة.

ويأتي وصفها بالتاريخية في المرتبة الثانية؛ لأن دور البشر في مجريات أمورها دور ثانوي قياساً على الإرادة الإلهية، والأهداف الإلهية التي حكمت أن يستشهد الحسين عليه السلام بما هو القائد المعصوم، وأن يستشهد أهل بيته عليهم السلام وأن تُسبى نساؤه ليكون كل ذلك قمة في العبودية كما يرى السيد. والصفة التاريخية نتيجة قياساً على الأصل الصفة الإلهية، وإذا كانت هجرة الرسول صلى الله عليه وآله قد تمت بأمر إلهي، هدفها خير البشر من خلال تعميم قيم الإسلام [١٠] ، بما يغيِّر الناس وسلوكهم وعلاقاتهم فيكون ذلك حركة تاريخية، فإن هجرة الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء بأمر إلهي أيضاً.. هدفها خير البشر من خلال "الحفاظ على قيم الإسلام وإنجازات الرسول صلى الله عليه وآله"[١١]، بما يعيد الحق إلى نصابه فيكون ذلك حركة تاريخية أيضاً، ولذلك فإن سماحته يرى أنَّ الهجرتين هجرةٌ واحدة من حيث المضمونُ والهدفُ والخلفية والمظاهر والشعارات[١٢]. فهما أمر إلهي انعكس حركة إيجابية في تاريخ البشر. وإذا كانت غاية كربلاء "أن تستنهض الأمة وتحرِّكها وتوقظها"[١٣]؛ أي أن تنتج تاريخاً جديداً لها مختلفاً عن التاريخ الذي أراده لها زيد، فإن مفاعيل تلك الحركة لن تتوقف عند تخوم إنجازاتها المباشرة في منهج يزيد من تحقيق مشروعه، ولكنها حركة مستمرة ما وُجد الإنسا على الأرض.

وحين يرى السيد أن إحياء ليلة من ليالي عاشوراء هو إحياء لأمر محمد صلى الله عليه وآله وآل محمد عليهم السلام [١٤]، يعني أن الحدث الكربلائي ذاكرٌ وفعلٌ حاضر متحقق في كل لحظة. والإحياء ليس تعزية وحزناً وأجراً فحسب،

ولكنه استحضار للفعل الكربلائي بكل أبعاده وخلفياته ومفاعيله ووضعه في مجرى الزمن الحاضر أيضاً. ويأتي كلام السيد على المقاومة في هذا السياق: "هكذا تكون لنا كربلاؤنا التي ننتصر فيها على كل أعدائنا ونهزمهم إن شاء الله" (١٥) . ولا يشير هذا الكلام إلى الاستمرارية التي تتصف بها حركة كربلاء فحسب، ولكنه يشير إلى روحية كربلاء التي تحتضن بذرة الانتصار المتفتحة أبداً أيضاً. إن إضافة كربلاء قوى جماعة المتكلمين تفتحها ليكون لكل مرحلة كربلاؤها، كربلاؤها المستقلة عن نتائجها الراهنة المباشرة. ويعني ذلك أن لكل كربلاء باطناً وظاهراً، باطناً ثابتاً متمثلاً بالفعل الذي يشكِّل استجابة لأمر الله في عظائم الأمور وصغائرها، وهو فعل نجاح أكيد، وظاهراً متغيِّراً متمثلاً بالفشل المؤقت أو بالنجاح المرحلي. كربلاء هذه حاضرة أبداً في سلوك أولئك المؤمنين المستجيبين لأمر الله ما بقي البشر حتى عصر الظهور المقدَّس الذي لن يكون سوى كربلاء تلك المرحلة(١٦) .

وأن تكون كربلاء حادثة تاريخية بهذا الحجم المتناسب مع صفتها الأولى، كونها حادثة إلهية لا بدَّ من أن يصفها خطاب السيد بأنها حادثة استثنائية(١٧). ومجيء الاستثنائية ثالثة لا يقلل من شأنها؛ لأن هذه الاستثنائية مرتكزة على الصفتين الآنفتين: الإلهية والتاريخية. فهي تجمعهما في تكوينها خصوصاً أنها قد واجهت ظالماً استثنائياً ارتكب في كل سنة من سنوات حكمه الثلاث جريمة نكراء لا تُغتفر. قتل ابن بنت رسول الله ﷺ، واستباح المدينتين المقدستين مكة والمدينة. وشخصية هذه أفعالها لا بدَّ من أن يكون مشروعها مشروعاً جاهلياً محارباً لله ولرسوله (١٨). وحدث يتصدى لهذا المشروع فيحول دون تحقق مفاعيله السلبية المدمِّرة هو حدث استثنائي سيكون له حضور استثنائي في الوجدان الشعبي (١٩) على امتداد التاريخ . وإذا تساءلنا عن عمق الموقفين، قدَّمت لنا رؤية المقاومة من خلال

خطابها جذرين لهذا الاختلاف: الجذر الأول هو التعلق بأهداب الدنيا، والجذر الثاني هو التعلق بالآخرة والامتثال لأمر الله[٢٠].

ويبقى أن السؤال البديهي الذي يُستثار حول رؤية المقاومة إلى الحدث الكربلائي: ما هي مكوِّناته؟ وأول ما يتبادر إلى ذهن المتسائل هو المكوِّن التاريخي. والمكوِّن التاريخي مادة يمكن قراءتها من خلال وجهات نظر متباينة، ويمكن أن يكون لها غير تفسير. فهو مكوِّن أقرب إلى الحيادية منه إلى تحديد موقف. ولقد سمعنا، وفي مراحل متعددة من تاريخنا، أصواتاً نكرة ترى في الحدث الكربلائي خروجاً على إمام ذلك الزمان. ويعني ذلك أن المكوِّن الأساسي لرؤية المقاومة هو المكوِّن الثقافي الإسلامي. والمدرسة العلمية الثقافية الجهادية التي أسَّس لها أمير المؤمنين ﵇، وتوارثها معصوم عن معصوم، هي التي حكمت تلك الرؤية إلى حد بعيد.

وإذا لم تكن الثقافة المعصومة، في طور تكوُّنها، معنيةً بتجديد الرأي من موقف هذا الإمام أو ذاك، فأدّى ذلك إلى إثارة أسئلة تتعلق بموقفي الحسنين﵉ المتباينين من الحكم الأموي، فإن خطاب سماحته قد وضع النقاط على الحروف في هذه المسألة وفي غيرها. وذلك اعتماداً على ثقافة المرحلة المؤسسة على الموروث الثقافي الإسلامي. ولقد أزال كلام السيد كل لبس يمكن أن يعلق بذهننا حول تباين مواقف أئمتنا: "وظيفتنا في الدنيا، أن نؤدي تكليفنا الشرعي. لا يجوز أن يكون أحدنا أسير الشعارات بالمطلق. (هيهات منا الذلة) ليس شعار الحسين فقط، كما أن المصالحة ليست شعار هذا الإمام أو ذاك، وليست صالحة لكل مرحلة بل في كل مرحلة لنا تكليف محدَّد، والإمام يقول لنا: تكليفكم كذا، نحن جماعة التكليف نتبع أمر إمامنا"[٢١]. وإذا كان هذا الكلام حاسماً للجدل حول صلح الحسن﵇، فإنه يطرح أمامنا قضية القيادة، ودور القائد في حياة الأمة، وإن كنا مضطرين إلى تأخير الإجابة عن هذا السؤال لنستكمل الحديث عن مكوِّنات رؤية

المقاومة إلى الحدث الكربلائي.

وتأتي تجربة المقاومة الإسلامية الراهنة لتطرح نفسها مكوِّناً ممكناً من مكوِّنات رؤيتها إلى كربلاء. وهذا ما يستدعي أن نقف عند رؤية المقاومة إلى نفسها وعند تعلقها بالحدث الكربلائي.

ثقافة المقاومة وثقافة كربلاء:

قدَّم لنا خطاب المقاومة رؤية إلى كربلاء في ضوء التجربة الجهادية الراهنة، خصوصاً عندما انطلق سماحته من التحوُّل الكبير الذي أحدثته دماء شبَّان مجهولين في الأرض معروفين في السماء، في أمتنا وفي عالمنا وهو يعني بهم استشهاديي المقاومة الإسلامية، ليقيس على هذا التحوُّل تحوُّلاً آخر يمكن أن يحدثه استشهاد قائد عظيم من مثل الحسين عليه السلام [٢٢]. وإذا أراد سماحته أن يبيِّن حجم ذلك التحوُّل أشار إلى أن الدم الذي سفكه يزيد سيتعدى بمفاعيله زمن ذلك الطاغية "إلى تاريخ هذه الأمة، في الأجيال الآتية، في المستقبل، في حركة التغيير الكبرى في العالم. هذا الدم هو الذي سيصنع كلَّ هذا التاريخ. وحين يرى أن المآل الإنساني الموعود للعالم نتاج متصل بالشعلة الحسينية، فمن الطبيعي أن يرى أن كلَّ إنجاز يحققه المسلمون ليس سوى حلقة في سلسلة معروفة الطرفين. يدخل في سياقها بناء الدولة الإسلامية في إيران، والمعادلات التي أعادت إنتاجها المقاومة الإسلامية. وما الإنجاز الذي سيجترحه الإمام الحجة عجل الله فرجه في آخر الزمان سوى النهاية الطبيعية والأكيدة التي أسس لها الحسين عليه السلام بدمه في كربلاء.

والمقاومة الإسلامية التي رأت لنفسها وظيفة التمهيد [٢٣]، الذي يندرج في سياق الحدث الكربلائي، لم تكتف بأن ترى هذا الأمر عملاً ثورياً تغييرياً مفيداً لجيل محدد من أجيال المسلمين، ولكنها وضعته في سياقه الإلهي.

"هدف الأنبياء والرسل هو إقامة العدل في الأرض. وقد سعوا إليه وضحوا من أجله وهو الهدف الذي سيتحقق، إن شاء الله، وبوعدٍ منه عز وجلّ على يدي حفيد الحسين، الحجة المنتظر ﷺ[٢٤]، وخطاب المقاومة لا يشير إلى أنه يعي هذا الأمر فحسب، ولكنه يشير إلى أنه يعي أنه يعيه: "الحسين ليس قائداً وإماماً مقطوع الصلة بالماضي، ولم يكن مقطوع الصلة بالمستقبل. الحسين هو امتداد لحركة النبوة والرسالات التي خُتمت بمحمد ﷺ، واستمرت في إطار المعصومين عليهم السلام، واحتُفظت في أمانة وعهدة صاحب الزمان. حتى إذا جاء وقت الوعد الإلهي خرج ومعه المسيح ليقيما دولة العدل والعبودية لله في العالم"[٢٥]. ونظرة المقاومة إلى قضية العدالة على الأرض وفاق هذا السياق لم يجعلها تحدِّد موقعها داخله بشكل دقيق فحسب، وهذا يكسبها ثقة عارمة بمسارها، ولكنه جعلها تقدم النظرية الإسلامية في الثورة والسياسة في مواجهة النظرية الماركسية. فلقد رأى سماحته أن كثيرين "قاموا بثورات وأسقطوا حكَّاماً ظالمين، ولكن بعد أن أخرجوا الظالم من الساحة جلسوا هم ليحكموا بنفس ذلك الظلم"[٢٦]، ورؤيته وإن وافقت الماركسية في جانب من تصورها، فوضعت إصبعها على جرثومة السلطةِ غير الإسلامية ووجدت أنها محكومة بأن تكون سلطة ظالمة، إلا أنها لم تكتف بهذا الكشف وتلك الملاحظة، عندما رأت أن سلطة يقيمها الإسلام الحنيف، على يد قادته المعصومين، لن تكون إلا سلطة عادلة، وإن تأخر قيامها إلى آخر الزمان، وإن احتاجت إلى تمهيد أساسي كثورة الحسين عليه السلام وإلى ممهدات تاريخية كثورة الخميني قدس سره، وكحركة المقاومة الإسلامية في لبنان.

ومما لا شك فيه أن هذه الرؤية التي واجهتنا في خطاب سماحته قد خطت خطوة واسعة في اتجاه إنتاج الثقافة في ضوء معطيات المرحلة التاريخية الحالية. ذلك أن هذا التعالق الذي رأيناه بين كربلاء، والثورة

الإسلامية في إيران، والمقاومة الإسلامية في لبنان، وما سينجزه الإمام الحجة في فكر سماحته هو فهم دقيق للواقع، وللمعضلة التي تواجه البشرية من زمن أبي جهل وزمن يزيد إلى زمن إسرائيل وزمن الاستكبار العالمي[٢٧]، وخطاب المقاومة لم يشكل تشخيصاً لمشكلة الظلم والاستبداد وحدها، تعدَّاها إلى تحديد الدواء. وهل الثقافة سوى تحديد للمشكلة، ووضع حلٍّ لها؟ إننا إذاً أمام ثقافة الانتصار في زمن عربي إسلامي خاوٍ يعيش على ما يستورده من ثقافة الآخرين.

ومساهمة سماحته في إنتاج ما أنتجه من ثقافة إسلامية ثورية لم يكن ترفاً فكرياً قائماً على فرضيات هذا الصحافي المراقب للأحداث أو ذاك، ولكنه نتاج الخائضين في غمار المشكلات الصعبة المستعصية على مختلف هذه الأمة. وما كان لسماحته أن ينجح فيما نجح به لولا إمساكه المشكلة من مقبضيها الحقيقيين عنيت الخوض في غمار التجربة والاعتصام بفكر أئمتنا المعصومين وثقافتهم الإسلامية. ولذلك فالمقاومة الإسلامية لم تنطلق من تجربتها لترى حجم الحدث الحسيني في ضوئها إلا لتفيد من ذلك الحدث الإفادة المرجوة في تسديد المسيرة وتنشيطها، والمقايسة التي أجراها سماحته بين إنجاز المقاومة، وإنجاز الحسين ﵇ كانت برهاناً منطقياً لتبيان حجم الإنجاز الحسيني، ولم تكن لتعني أن بداية العلاقة الجدلية بين المقاومة وكربلاء قد ابتدأ نسيجها من خيط في لبنان. فالعكس هو الصحيح وغاية آمال الاستشهاديين "يكمن في سر وهوية وروح وعقل وقلب ودماء وآهات أبي عبد الله الحسين ﵇"[٢٨] ، كما يرى سماحة السيد. وهم لم يقتحموا هذا الموقع أو ذاك بالسلاح "اقتحموه بالحسين﵇"[٢٩].

والحسين هو المدرسة التي تخرَّج من صفوفها مقاتلو المقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين [٣٠]، ولم يكن خيار (هيهات منا الذلة) خيارهم الوحيد للصمود فحسب، كان خيارهم لاستعادة الأرض [٣١] أيضاً. كل ذلك بعد أن

تعلموا من اليوم العاشر كلمة الحسين *"إني لا ارى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً"*[٣٢].

ومهما يكن من أمر، فإن اتصال المقاومة بكربلاء ودورها التنويري التحريضي ضد الظالمين ليس اتصالاً بأي تجربة من تجارب الأمم، ولكنه اتصال أبناء المدرسة بمعلميهم العظام، اتصال المؤمن بأصول عقيدته. وهذا أمر ليس بسيطاً، فمتابعة طريق المقاومة هو صدق البيعة للحسين عليه السلام[٣٣]، وامتثال لأمر الله [٣٤] وفاق قاعدة امتثال الحسين عليه السلام نفسها في كربلاء. وانطلاقاً من هذه النظرة استبعد سماحته أن يكون السلاح والقدرات الجسدية من بين أسرار قوة المقاومة الإسلامية. سر قوة تلك المقاومة إيمان استشهادييها[٣٥]، وحضور كربلاء الدائم في نفوسهم[٣٦]، عشقهم الحسيني للشهادة[٣٧]، واختيارهم الطوعي طريق ذات الشوكة، طريق أصحاب الحسين عليه السلام [٣٨].

ولقد لخص السيد هذا السر حين وصف المقاومين أنهم "قوم إذا[٣٩] قالوا فعلوا". وتجعلهم هذه القاعدة مختلفين عن أولئك المنتمين إلى الأحزاب اليسارية الذين كانت مشكلتهم الأساسية أنهم قوالون أكثر مما هم فعَّالون.

ولقد تحوَّل سلوكهم هذا إلى مركَّب نقص حال دون الكثير من أمانيهم. وليس في الأمر غرابة. فهم لا ينتمون إلى المدرسة الحسينية، تلك المدرسة التي رأت فيها المقاومة الإسلامية صرحاً تربوياً تخرَّج منه جميع أبطالها. كيف لا وكربلاء على حد تعبير السيد "ما تركت لصاحب حجة حجة، ولا لصاحب ذريعة ذريعة، ولا لصاحب ألم أن يشعر أن ألمه هو الأكبر"[٤٠]. وحين يجد المقاوم الإسلامي أن أهله في أمان، وأطفاله في منأى عن يد الطغاة، ونساءه مصانات لا بدَّ من أن يقدم على الشهادة وهو متيقن أن ألمه سيظل صغيراً أمام ألم أبي عبد الله الحسين عليه السلام في كربلاء. ولا يغفل خطاب المقاومة الإسلامية عن الإفادة التربوية من اللحظات الأخيرة في

حياة إمامنا المقدّسة؛ ناقلاً إلينا كلماته الأخيرة "أرضيت يا ربّ؟"، معلّقاً بأن ما قاله عليه السلام: "إحساس بالتقصير تجاه الله"[٤١]. وأن يشعر عليه السلام، ما مع قدّمه بالتقصير يجعل أي تضحية مهما بلغت صغيرة أمام تضحياته. ولا تربي المقاومة نفسها على التواضع حيال إنجازاتها العظيمة فحسب، ولكنها تعبئ ذاتها من خلال الفضل الذي يناله المستشهد بين يدي الحسين عليه السلام. "إن هذا الساتر، أو هذا الكمين، أو هذه العبوة هي الفاصل بين - المقاوم - وبين أن يحتضنه أبو عبد الله الحسين عليه السلام"[٤٢]. وموت كهذا سعادةٌ تمد المقبل عليه بروحية وشجاعة وحماسة ورجولة كربلاء[٤٣].

ويبقى أن الثقافة التي أنتجت خطاباً شفافاً بهذا القدر، هي التي اجترحت انتصار ثلة من المستضعفين على أعتى كيان عنصري في هذا العصر، فصار هذا الانتصار حجة أرى العربَ والمسلمين كيف يمكن أن تُزال إسرائيل من الوجود.

إن ثقافة المقاومة الإسلامية ثقافة متفائلة، لأنها ثقافة شيعية إسلامية. وما كان لهذه الثقافة إلا أن تكون متفائلة مع امتداد عصور الاستبداد والخوف. قرون تعاقبت بعد استشهاد الحسين عليه السلام والشيعة مقموعون مقتولون حتى سُميت تلك العهود بزمن الخوف. ومع ذلك والشيعة فرحون بما لديهم، صابرون، محتسبون، ينتظرون إمام العصر والزمان الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن تكون قد ملئت ظلماً. وثقافة متفائلة بهذا القدر نتاج طبيعي لحدث كربلاء، العطاء الكبير بنظر التاريخ. الصغير بنظر مجترحه الحسين عليه السلام.

ج- عاشوراء والقيادة في خطاب المقاومة:

تضعنا رؤية المقاومة إلى عاشوراء وجهاً لوجه أمام فكرة القيادة التي تقود حركات التمهيد المتتالية؛ وصولاً إلى إنجاز الثورة الإسلامية النهائية على يد حفيد الحسين عليه السلام. والذي نجده في خطاب المقاومة قناعةٌ راسخة

أنَّ الإمامة "ضمانةُ النظام والوحدة والحق والآخرة وطريقُ الله"[٤٤]. وفي ذلك إيماءة إلى أن تضييع الإمام، كما حدث في كربلاء، تضييع للنجاة من النار. ولذلك أتمَّ الله "الحجة على عباده في الحياة الدنيا" [٤٥]، فحدَّد لهم إماماً قائداً. ويعني ذلك أن القيادة حاجة بشرية بالدرجة الأولى. والقصة "ليست قصة التبليغ والتعليم والهداية فقط، بل تتجاوز ذلك إلى مسألة الولاية والأمرة والأخذ بأيدي الناس وقيادتهم في كل تفاصيل حياتهم فضلاً عن القضايا الكبيرة؛ لأن الناس لا يريدون شخصاً يبيِّن لهم الأحكام فقط، بل يقودهم أيضاً. وهذه سنة طبيعية"[٤٦].

وأشدّ ما تكون حاجة الناس إلى الإمام القائد هي في أيام الفتن؛ لأن الفتن تلبس الحق الباطل وتضلّ عن الطريق السديد؛ حتى ليقف العقل عاجزاً عن التدقيق في المعلومات التي تسرَّبت إليه عن قصد، أو غيرِ قصدٍ، فلا يستطيع أن يحدِّد موقفاً صائباً مما يجري. "ولمثل هذه المحن والفتن نصَّب -الله- الإمام علامة للحق"[٤٧]. وما علينا إلا أن نطيعه طاعة عمياء. "ولذلك كان الرسول ﷺ يربي الناس على المقاييس والضوابط ومعرفة الحق، وإلى جانبها يقول: ***«علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»***... إن أعظم مقياس للحق هو رجل، هو الإمام المنصوب من الله عزَّ وجلّ" [٤٨]. والرسول ﷺ إلى ذلك يعرف أن الفتنة ليست مضلّة للعوام وحدهم تتعداهم إلى الخاصة ولذلك أوصى أبا ذر، وهو من هو، أن يسير في وادي علي عليه السلام حين تتشعب الأودية. وحين يكون الشخص الذي اختاره الله مقياساً وجبت علينا طاعته، أما ونحن في زمن الغيبة فقد توجَّب علينا أن نسأل عن كيفية الاهتداء إلى القائد البديل. لم تتركنا العناية الإلهية تائهين. فإذا "أردنا أن نفتِّش عن أساس ولاية الفقيه سنجده في القرآن الكريم، وسنجده في نهج البلاغة؛ لأن الله والرسول والأئمة وضعوا مواصفات لولي الأمر، حين تفقد الشخص المعيَّن بالنص، يجب أن تفتِّش

عن الشخص الذي يستجمع المواصفات"(٤٩).

ومواصفات البديل أن يكون عالماً، عادلاً، ورعاً، زاهداً، شجاعاً، بصيراً، مؤمناً، غير جلف، أو ظالم، أو خشن (٥٠). وتحديد الصفات وإن كان يقرِّبنا من اختيارٍ صائب للولي الفقيه، بسبب تعدّدها واتساعها، إلا أنه لا يصل إلى يقينية الاختيار السليم. فهل يُعطى جميعُ أفراد الأمة سلطة اختيار الولي الفقيه بعامتهم وخاصتهم، وتجربة مجتمعاتنا الديموقراطية الغربية واضحة في تأكيد وصول المتموِّلين وأصحاب النفوذ وحدهم إلى موقع القرار؟

رأى سماحته: أنه"في زمن حضور المعصوم هذه المواصفات تتحقق بالمعصوم، وفي زمن غيبته يكون لدينا مجموعة فقهاء، فيجب أن نستخلص من بينهم العدول، ومن بين هؤلاء يجب أن نبحث عمن يتحلى بالشجاعة والإخلاص" (٥١). استطاعت هذه الرؤية أن تتخلص من مأزق الديموقراطية الغربية لتحصر في الفقهاء، مفكري الأمة الكبار، مسؤولية الترشيح ومسؤولية الاختيار. والعدول من بين هؤلاء المفكرين وحدهم يُختار من بينهم أشجعهم وأكثرهم إخلاصاً. يعني ذلك أن القاعدة قد حصرت قيادة الأمة بأفضل فقهاء الأمة على الإطلاق. ونستطيع القول أيضاً إنها حصرتها في أفضل أبناء الأمة، وحين تكون شروط القيادة دقيقة بهذا المقدار وَجُب على الأمة طاعة ذلك القائد. "وعندما نطيعه إنما نطيع أمر المهدي ﷺ ونطيع أئمتنا وربنا لأنهم أمرونا أن نعود إليه"(٥٢). والدليل القاطع على وجوب هذه الطاعة تجربة المقاومة نفسها ذلك أن المقاومة الكبيرة التي هي الشيء الوحيد في هذا العالم العربي الذي نرفع رأسنا به ونعتز به وبوجوده، لولا رجلٌ اسمه روح الله الموسوي الخميني، كما يرى سماحته، وهو الخبير، "لما كان لها وجودٌ في لبنان، وبعده لولا رجلٌ اسمه علي الحسيني الخامنئي لما استمرت"(٥٣). فهو الذي نبهها إلى أن الالتفات إلى طاعنيها من الخلف، على خطورتهم، كفيل بألا تكون هناك مقاومة (٥٤).

ويبقى أن الاختلاف مع الديموقراطية الغربية في اختيار القائد لم يكن اختلاف الثقافة الإسلامية وحدها معها، الفلسفة الماركسية لم تأخذ بهذه الديموقراطية، أخذت بالديموقراطية المركزية، ديموقراطية النخبة السياسية. وهذه النخبة وإن كانت نخبة ثقافية إلى حد معقول إلا أنها ليست نخبة مفكرين كما هي الحال في مدرسة آل البيت. نخبتنا نخبة فقهاء مفكرين قادرةٌ على تشخيص مشكلات الأمة، وقادرة على اختيار الأقدر على التصدي لتلك المشكلات، بعكس الديموقراطية الغربية التي هي أقرب إلى الغوغائية منها إلى الاختيار السليم.

ومما يجدر ذكره أن مقولة حاجة الأمة الدائمة إلى القائد التي أثبتت البراهين والتجارب التاريخية مصداقيتها، إنما تدحض المقولة الماركسية التي ترى أن القيادة المتمثلة بالسلطة هي قيادة ظالمة دائماً، لأنها تمثِّل مصالح الطبقة المستغلة في مواجهة مصالح سائر طبقات المجتمع. ولن يزول الظلم من العالم، كما ترى الماركسية، إلا بزوال الدولة والقيادة. والسؤال الصعب الذي يواجه هذه المقولة: هل سيخلو المجتمع البشري، مهما بلغ من الرقي والتقدم، من ذوي النفوس المريضة؟ وهل سيترك هؤلاء مجتمعهم لفرضية التسيير الذاتي الآلي؟

د- ثقافة عاشوراء ومرجعية العقل:

وما دمنا نتحدث عن القيادة والفكر والديمواقراطية، لا بدَّ لنا من أن نراقب وظيفة العقل في خطاب المقاومة الإسلامية لنتبيَّن موقعه في عملية اختيار القائد من جهة، ودوره في صوغ قرارات ذلك القائد من جهة أخرى.

المعروف أ ن المذهب الشيعي مذهب كلامي. والكلاميون يتوسلون العقل مرجعاً أساسيّاً يستندون إليه في أثناء محاولتهم الوصول إلى بعض الحقائق. ولكن أي الحقائق التي تشكل موضوع ذلك العقل؟

نشأ علم الكلام للدفاع عن الشريعة الإسلامية في وجه الأسئلة الحرجة

التي طرحتها عليه بعض الأديان وبعض الفلسفات التي وجدت لنفسها موطئ قدم تحت شمس الدولة الإسلامية. ويعني ذلك أن العقل، داخل المدارس الكلامية، لم يستخدم للوصول إلى حقائق جديدة غير معروفة، الحقيقة قرَّرتها الشريعة، وما على العقل إلا أن يأتي بالبرهان المصدِّق. والقيام بهذا العمل لم يكن قصد إيجاد إيمان بالإسلام، ولكن قصد ترسيخ الإيمان بهذا الدين في نفوس المؤمنين به بعد أن قدَّر الكلاميون أن أسئلة المانويين والمزدكيين والمنطقيين اليونانيين تشكِّل خطراً على ذلك الإيمان، ولذلك بدت الحاجة إلى العقل ثانوية.

ولم يخرج خطاب المقاومة الإسلامية عن هذه الرؤية إلى العقل.

فإذا ما انطلق سماحته من مبدأين:

الأول: يفيد أ ن خالق الكون أعلم بحقائق الكون[٥٥].

والثاني: يرى أن دين الله أوسعُ من العقل ومن المستحيل أن يصيب الإنسان كل شيء عن دين الله بعقله.[٥٦]

فإن هذين المنطلقين قد تركا للعقل هامشاً وظيفياً ثانوياً يضطلع به إلى جانب التصديق بالشريعة الإلهية. وإذا كان الإسلام غير قابل ليقع بكليته في قبضة العقل، فإن الله لم يمنَّ على الإنسان بالعقل وحده[٥٧]؛ لأن العقل غيرُ كافٍ لتقديم الحقيقة، ولذلك منَّ اللَّه على عباده بالهداية[٥٨].

والدليل المؤيد لصحة هذا المنحى وجدته المقاومة الإسلامية في تجربة بعض كبار المسلمين الأوائل. ذلك أن "سليمان بن صُرَدَ الخزاعيَّ وهو من أصحاب الإمام علي عليه السلام كان يقول للإمام الحسن عليه السلام: يا مذلَّ المؤمنين... ومحمد بن الحنفية... كان يقول لأخيه الإمام الحسين عليه السلام... : إلى أين أنت ذاهب؟ ألتقتل نفسك؟... كبار القوم كانوا في الأزمات والشدائد يشتبهون في تطبيق المقاييس الإلهية، مع أن الرسول ﷺ كان قد علَّم الأمة المقياس

الذي لن يخطئ على أساسه أحد[٥٩]. البرهان دقيق؛ فالرجلان من قادة الصف الثاني في الأمة، عصفت بهما الأزمات فلم ينفعهم عقلٌ مع وجود الهداية. فكيف الحال بالنسبة إلى عوام الناس؟

الرؤية إلى العقل في خطاب المقاومة متناغمة مع حاجة الأمة إلى القائد. ذلك أن ولي الأمر في زمن الغيبة الكبرى "إضافة إلى فقهه واجتهاده ووعيه وخبرته - علمه وعقله - لديه بالتأكيد نوع من التأييد والتسديد والهداية فيما يتخذه من قرارات وفيما يشخّصه من وظائف" [٦٠]. تشير هذه الرؤية إلى أن المواصفات التي يُختار الولي الفقيه على أساسها غير كافية، وكذلك ما أعمله ذلك الولي من علمه وعقله: فقهاً واجتهاداً ووعياً وخبرة فيما يشخّص، أو فيما يتخذه من قرارات. يظل بحاجة إلى التسديد الإلهي، إلى ما هو أبعد من إمكانات العقل. والحسين عليه السلام نفسه فيما واجهه في كربلاء، كان قائماً على التسليم لمشيئة الله، ولا علاقة له بما يمكن للعقل أن يستنبطه أو يأتي به.

وإذا كان الغرب في مرحلة ما بعد الحداثة قد رفض مرجعية العقل في تحديد الصواب والخطأ. وذلك بعد سلسلة من النقود التي وُجِّهت إلى ذلك العقل الذي كان إماماً، في مرحلة الحداثة، بدءاً بكانت و"نقد العقل الخالص"، مروراً بنيتشه ونظرته إلى الأنظمة العقلية بوصفها أنظمة بلاغية تضيّع الحقيقة، وانتهاءً بدريدا الذي أوصل الثقافة الغربية إلى العدمية، فأدخل المجتمع الغربي مرحلة التوحش الذي يمتلك أظافر وأنياباً نووية. ويوصلنا هذا الأمر إلى القول: إن شيئاً لا يعصم الغرب والعالم من شر هذا المآل سوى الثقافة الإسلامية. فهي الوحيدة التي تمتلك رؤية متناسبة مع وظيفة العقل ومع مصلحة البشرية التي لا ينتشلها مما غرقت به إلا الموقف الإسلامي الذي بدا من خلال "خطاب عاشوراء" لسماحة السيد متماسكاً

حيال قضايا الحياة البشرية من ألفها إلى يائها. فلا ثغرة ولا اضطراب حول أي موقف من المواقف. وإذا أردنا أن نطلق عنواناً آخر على هذا الكتاب قلنا: هو "درس الثقافة الإسلامية"، لا بل "درس الثورة الإسلامية" التي بنت استيعابها للإسلام من جهة، وللمعضلات التي تواجه البشرية على امتداد التاريخ من جهة أخرى، على فهم علي عليه السلام وأبنائه المعصومين عليهم السلام لهاتين المسألتين، ولا خلاص للبشرية إلا بتعلم هذا الدرس.

د. علي مهدي زيتون

الهوامش:

(١) مسائل الألسنية العامة، ٢٤١/١ .

(٢) خطاب عاشوراء، ص٤.

(٣) م ن. ص ١٤.

(٤) م ن. ص ١٢٩.

(٥) م ن. ص ١٤٨.

(٦) م ن. ص ١٤٩.

(٧) م ن ص ٢٠٠.

(٨) م ن. ص ٦٩.

(٩) م س. ص ٦٩.

(١٠) م س. ص ١٤.

(١١) م س. ص١٩٢.

(١٢) م س. ص ١٩٣.

(١٣) م س. ص ١٩٠و١٩٢.

(١٤) م س. ص١٤٢ .

(١٥) م س. ص ٦٥.

(١٦) م س. ص٢٥٠.

(١٧) م س. ص ١٤.

(١٨) م س. ص٢٠٠.

(١٩) م س. ص ١٥.

(٢٠) م س. ص ١٧و ٢٦و ٨٧و ٩١و ٩٢.

(٢١) م س. ص ٥٩.

(٢٢) م س. ص١٥٢.

(٢٣) م س. ص١٥٠.

(٢٤) م س. ص ٢٦.

(٢٥) م س. ص٧.

(٢٦) م س. ص ٧٢.

(٢٧) م س. ص ١٣٩ .

(٢٨) م س. ص ٧٢.

(٢٩) م س. ص ١٥٠ و١٥٢ و٢٧٤.

(٣٠) م س. ص١١.

(٣١) م س. ص ٦٨.

(٣٢) م س. ص١٥٢.

(٣٣) م س . ص ٢٧٤.

(٣٤) م.س. ص ٢٧٥.

(٣٥) م.س. ص٢٠ و٩٧.

(٣٦) م.س. ص ١٣٢.

(٣٧) م.س. ص٥٠.

(٣٨) م.س. ص ٤٥.

(٣٩) م.س. ص ٦٨.

(٤٠) م.س. ص ١٤٥.

(٤١) م.س. ص ٤٤.

(٤٢) م.س. ٤١.

(٤٣) م.س. ص٤٢-٤٣.

(٤٤) م.س. ٤٩.

(٤٥) م.س. ص٥٠.

(٤٦) م.س. ص٢٣.

(٤٧) م.س. ص ١٩.

(٤٨) م.س. ص ٢٠.

(٤٩) م.س. ص ٢١.

(٥٠) م.س. ص٢٤-٢٥.

(٥١) م.س. ص ٢٥و٥٩.

(٥٢) م.س. ص٢٥.

(٥٣) م.س. ص ٢٦.

(٥٤) م.س. ص ٦١.

(٥٥) م.س. ص١٠٣.

(٥٦) م.س. ص ٩.

(٥٧) م.س. ص ١٨و١٠٢.

(٥٨) م.س. ص ١٨.

(٥٩) م.س. ص ٥٨.

(٦٠) م.س. ص١٥٠.



المنشأ التاريخي للعادات العاشورائية

المنشأ التاريخي للعادات العاشورائية

إن الحديث عن المنشأ التاريخي للعادات المتبعة في المآتم الحسينية "مآتم عاشوراء" يقتضي أن نلفت النظر إلى أن العادة والتقليد قد تكون منطلقة من واقع اجتماعي أو سياسي بغض النظر عن منشأ أو منطلق تشريعي أو مصدر ديني، هذا في العموم وما يتعلق بعادات عاشوراء بشكل خاص، مع ما عاناه الشيعة في التاريخ "وهم الفئة التي تحيي هذه المناسبة"، وقد مروا بظروف معقدة وصعبة على مستوى العلاقة مع السلطات الحاكمة في المراحل كافة، تكشف القراءة لهذه المراحل أن بعض عادات عاشوراء لم تنشأ من منطلق شرعي أو مصدر ديني، وأن بعضها حظي بتأييد من الفقهاء والبعض الآخر، اختلف فيه.

ولذلك سنعمل في هذا البحث على الموضوعية من جهة العرض للوقائع، مما لا يعني تأييداً أو رفضاً أو محاولة إعطاء حكم خاص لهذه العادات أو بعضها، وسيتضمن البحث:

- نشأة المأتم الحسيني العاشورائي.
- نشأة العادات الخاصة بالمأتم.

أولاً: نشأة المأتم الحسيني العاشورائي:

في محاولة للخوض في المراحل التاريخية لتحديد النشأة الفعلية والانطلاقة الأولى للمأتم العاشورائي، نجد أن الأمر يدور بين حالة عفوية

وحالة منظمة مقصودة تختلف باختلاف موقعها التاريخي وبين من عمل عليها.

الحالة العفوية:

إن المقصود بالحالة العفوية هي المواقف التي أظهرت حالة الحزن من خلال إقامة المأتم والحداد والندب والعزاء من دون تخطيط مسبق عن قصد وتنظيم معين، وقد سجل التاريخ عدداً منها، بعضها كان فردياً وبعضها كان جماعياً.

أ- الحالات الفردية:

١- أم سلمة (رضي الله عنها): لما بلغها مقتل الإمام الحسين ﷺ قالت: "أوَ قد فعلوها؟ ملأ الله قبورهم ناراً، ثم بكت حتى غشي عليها".

٢- أنس بن مالك: "لما حُمِلَ رأس الحسين لابن زياد جعله في طست وجعل يضرب ثناياه بقضيب ويقول: "ما رأيت مثل هذا حسناً، إنه كان لحسن الثغر!!". وكان عنده أنس، فبكى وقال: كان أشبههم برسول الله ﷺ.

٣- زيد بن أرقم: قيل: إنه كان حاضراً على فعل ابن زياد، فقال له:

مه، ارفع قضيبك عن هذه الثنايا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يلثمها ثم خنقته العبرة، فبكى، فقال ابن زياد: مم تبكي؟ أبكى الله عينيك، والله لولا أنك شيخ قد خرفت لضربت رأسك".

٤- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: لما بلغه مقتل ابنيه مع الحسين، وأقبل الناس يعزونه قال لهم: "الحمد لله عز وجل على مصرع الحسين، إن لا يكن آست حسيناً يدي فقد آساه ولدي".

٥- الحسن البصري: عندما بلغه قتل الحسين بكى حتى اختلج صدغاه وقال: "و اذلّ أمة قتلت ابن بنت نبيها، والله ليردّن رأس الحسين إلى جسده، ثم لينتقمن له جده وأبوه من ابن مرجانة..".

ب- الحالات الجماعية:

١- بكاء من حضر وداع السيدة زينب عليها السلام لجسد الحسين عليه السلام في الحادي عشر من المحرم، حيث ودعت أخاها بمرثية جاء في بعضها: "يا محمداه.. وبناتك سبايا وذريتك مقتلة، تسفى عليها الصبا"، وقد أبكت كل عدو وصديق.

٢- بكاء أهل الكوفة عند وصول السبايا: تقول الأخبار: إن أهل الكوفة ضجّوا بالبكاء ونساؤهم يلتطمن مهتكات الجيوب، وكذلك كان الأمر بعد خطبة أم كلثوم بنت الإمام علي عليه السلام، وقد وصفت حال الناس: "فرأيت الناس حيارى وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم، ورأيت شيخاً كبيراً من بني جعفي وقد اخضلت لحيته من دموع عينيه، وهو يقول:

كهولهم خير الكهول ونسلهم
إذا عدَّ نسلٌ لا يبور ولا يخزى

٣- نساء الأمويين: يقول الطبري: "ثم أدخل نساء الحسين على يزيد، فصاح آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن.." قال ابن الأثير: "لم تبق امرأة من آل يزيد إلا وأتتهن وأقمن المأتم، وفي التذكرة: "فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً".

٤- بكاء أهل الشام في الجامع الأموي: وذلك أثناء خطبة الإمام زين العابدين عليه السلام، يقول الخوارزمي: "ولم يزل يقول: أنا أنا حتى ضجَّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذِّن أن يؤذِّن، فقطع عليه الكلام وسكت".

٥- بكاء الهاشميات والأنصار في المدينة: وقد وردت الأخبار الكثيرة في وصف الحالة التي آلت إليه المدينة المنورة عند رجوع ركب نساء الحسين عليه السلام إليها. فقالوا: "عجَّت نساء بني هاشم وصارت المدينة صيحة واحدة". وقالوا: "تصارخت النساء من كل ناحية، حتى ارتفعت المدينة بالرجمة التي ما سمع بمثلها قط".

وقالوا: "وضجت بنو هاشم والأنصار، ضجة لم يسمع بمثلها من قبل"، وجاء أن ابنة عقيل بن أبي طالب خرجت ومعها نساؤها وهي تقول:

"ماذا تقولون إن قال النبي لكم
ماذا فعلتم وأنت آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي
منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدمٍ
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم
أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمي"

٦- استقبال أهل مصر للسيدة زينب عليها السلام: "فقد وردت الأخبار أن والي مصر ومن معه من أهلها عندما استقبلوها في بلبيس من نواحي مصر، استقبلوها بالتعزية والبكاء والنحيب".

فإن العزاء وظاهرة الحزن والبكاء، برزت في أغلب ولايات ومناطق الدولة الإسلامية على الإمام الحسين في حينها، والأمثلة التي قدمناها تدل على ذلك وإن كان بشكل عفوي غير منظم أو مقصود.

الحالة المنظمة:

لقد تعددت الآراء في نشأة المأتم أو المآتم المنظمة والمقصودة، والتي اعتبرت هادفة في تسنين هذه الظاهرة وتثبيتها، ونعرض منها الآتي:

- الرأي الأول: التوابون: ٦٥هـ - ٦٨٤م.

وكان ذلك بعد مقتل الإمام الحسين بأربع سنوات، فقد رأى البعض في انطلاقة التوابين حينما غادروا الكوفة ووصلوا إلى موضع قبور شهداء كربلاء، حيث أقاموا المأتم ثلاثاً، وعلت أصواتهم بالبكاء والنحيب، عند قبر الحسين، وابتهالهم إلى الله أن يغفر لهم تخليهم عن حفيد النبي ﷺ في ساعة ضيقة أن ذلك كان بداية المأتم المنظم المقصود، وقد اعتبر بعض الكتاب أن مسرحيات المآتم التي تمثل في العاشر من محرَّم حيثما وجد

الشيعة تعود إلى ذلك المأتم، ومما جاء عن التوابين أن زعيمهم الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي، كان يصيح في ذلك اليوم: "اللهم ارحم حسيناً، الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي الصديق ابن الصديق. اللهم اشهد أننا على دينهم وسبيلهم وأعداء مقاتليهم وأولياء محبيهم".

وإن كان يعتبر بعض الباحثين أن هذا المأتم هو من المآتم العفوية كذلك.

- الرأي الثاني: مأتم المختار على باب ابن سعد:

في العام ٦٥ هـ كذلك حيث بلغ المختار بن أبي عبيدة الثقفي- وكان قد سيطر على الكوفة بعد خروج التوابين منها إلى الشام - أن محمد بن الحنفية غير راضٍ عنه؛ لأنه يُجلس عمر بن سعد على وسائده فأمر صاحب حرسه، أن يستأجر نوائح يبكين الحسين عند باب عمر بن سعد."وإن لم يسجل أنه أسس للمأتم الحسيني ولعل سبق التوابين وحجم مأتمهم، ووجود آراء تدعم أنهم أسسوا للمأتم العاشورائي ضعف الرأي فيه".

الرأي الثالث: البويهيون:

وكان ذلك في فترة سيطرة البويهيين على مقاليد الخلافة العباسية في بغداد، ذكر ابن الأثير عن سنة ٣٥٢هـ "في هذه السنة عاشر المحرم. أمر معزّ الدولة: الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وأن تخرج النساء منشرات الشعور، مسودات الوجوه وقد شققن ثيابهن في البلد، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما ففعل الناس ذلك..".

يقول السيوطي: "وهذا أول يوم نيح عليه فيه ببغداد... واستمرت هذه البدعة سنين".

وقال الذهبي: "هذا أول يوم نيح عليه ببغداد".

وقد شكك علماء الشيعة في بعض هذه المظاهر سيما أمر النساء أن يكشفن شعورهن. وقال بعضهم: "لم يكن فيها اختلاط بين الرجال والنساء:

"فكانت النساء تخرج ليلاً والرجال نهاراً".

ومع كل ذلك لا يمكننا أن نعتبر أن النشأة بدأت من هنا خصوصاً، وإن كتب التاريخ التي تذكر هذه الحادثة على أنها بعد ما يقارب ثلاثة قرون على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام تؤكد أنه أول يوم نيح فيه عليه ببغداد، وذلك لا ينفي أن تكون المآتم قد أقيمت في غيرها قبل ذلك، بل تؤكد الأخبار على إقامة المآتم فيها وفي غيرها قبل البويهيين.

- الرأي الرابع: الإمام زين العابدين عليه السلام:

حيث اعتبرت خطبته في المسجد الأموي عن قصد وهدف وشكّلت أول مأتم هادف على الإمام الحسين، كما أنه كان في كل ذكرى لعاشوراء، إما أن يخرج بين الناس في المسجد أو الأسواق، وإما يجمع حوله أصحابه وأهل بيته ويرثي الإمام الحسين ويبكيه، ويذكر ما حدث لهم في كربلاء ويبكي من حوله ومن يسمعه.

- الرأي الخامس: أئمة أهل البيت عليهم السلام:

يقول السيد محسن الأمين: "إنهم - أي أئمة أهل البيت عليهم السلام - بكوا على الحسين وعدّوا مصيبته أعظم المصائب، وأمروا شيعتهم ومواليهم وأشياعهم بذلك، وحثوا عليه، واستنشدوا الشعر في رثائه، وبكوا عند سماعهم، وجعلوا يوم قتله يوم حزنٍ وبكاء، وذمّوا من اتخذه عيداً، وأمروا بترك السعي فيه في الحوائج، وعدم ادخار شيء فيه، فالأخبار فيه مستفيضة عنهم، تكاد تبلغ حد التواتر، رواها عنهم ثقات شيعتهم ومحبيهم بأسانيدها المتصلة إليهم عليهم السلام.

وسنورد هنا بعضاً منها:

❖ الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

"أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي حتى تسيل على خده، بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً".

❖ الإمام الباقر عليه السلام:

"فيما ينبغي عمله يوم عاشوراء: "... ثم ليندب الحسين عليه السلام ويبكيه، ويأمر من في داره بالبكاء عليه ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً بمصاب الحسين عليه السلام.."

❖ الإمام علي الرضا عليه السلام:

"من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء، يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة، يوم فرحه وسروره، وقرّت في الجنان عينه".

ورد عدد من الأخبار أنهم عليهم السلام كانوا يجمعون الشعراء ليرثوا الحسين في بيوتهم، ويضربون الحجاب ويجلسون أبناءهم ونساءهم خلفه ليستمعوا لهم، وتعلو بيوتهم بأصوات البكاء والنحيب أيام عاشوراء ويقدمون العطايا للشعراء على شعرهم في الحسين عليه السلام، ولا يُرى واحدهم باسماً في تلك الأيام قط.

❖ الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

ورد في ترجمة السيد الحميري: "ذكر التميمي عن أبيه قال: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد، إذ استأذن آذنه للسيد (الحميري) فأمره بإيصاله، وأقعد حرمه خلف ستر، ودخل فسلَّم وجلس، فاستنشده فأنشده قصيدته التي مطلعها:

"امـــرر علـى جَـــدَثِ الحـــســـ

ـين وقـل لأعظـمـــه الزكــــيـــــة"

قال: فرأيت دموع جعفر بن محمد تنحدر على خديه، وارتفع الصراخ من داره، حتى أمره بالإمساك فأمسك".

وتكرر ذلك مع الأئمة والشعراء؛ كالكميت مع الإمام الباقر عليه السلام ودعبل مع الإمام الرضا عليه السلام.

خلاصة القول:

يمكننا أن نعتبر أن النشأة العامة للمأتم الحسيني العاشورائي، كانت بأمر أو موافقة أو تأييد الأئمة عليهم السلام، وقد مهدت المآتم العفوية للمآتم المنظمة الهادفة، واستمرت حتى وصلتنا في العصر الحاضر، ويبقى أن نلقي الضوء على نشأة العادات التفصيلية للمأتم التي يمكن أن نلخصها بالآتي:

الشعر - الندب - النواح - المواكب - القراءة وأطوارها - اللطم - التطبير - إقامة الولائم - الضرب بالزنجيل - تمثيل المصرع -... وغير ذلك.

ثانياً: نشأة العادات التفصيلية:

إن الحديث عن العادات المتبعة التي اكتسبتها مراسم المأتم الحسيني العاشورائي (الشعر - الندب - والنواح - المواكب - القراءة وأطوارها - اللطم - التطبير - الولائم - ضرب الزنجيل).

يقتضي أن نبيِّن العوامل التي ساهمت في ترسيخ هذه العادات وساهمت في استمرارها وتطويرها مع بيان مراحل النشوء، فالدراسات تؤكد أنه لم تنشأ في وقت ومرحلة واحدة ومعينة، بل كانت تطرأ على المجالس الحسينية والمآتم العاشورائية، بحسب الظروف الاجتماعية أو السياسية المحيطة بالشيعة ويمكن أن نعبِّر عن ذلك "بمراحل النشأة"، ولأننا لسنا بصدد بيان تفاصيل التطور ومراحله، سنتحدث عن مراحل النشأة بالجملة، وهما مرحلتان:

الأولى: مرحلة الأئمة وأهل البيت عليهم السلام

الثانية: مرحلة الحكومات الشيعية، وهي:

١- حكومة البويهيين.

٢- حكومة الفاطميين.

٣- حكومة الصفويين.

المرحلة الأولى: مرحلة الأئمة وأهل البيت عليهم السلام:

من الواضح حسب الأمثلة التي مرت معنا حث الأئمة وإنشاؤهم للمآتم، أنها لم تتجاوز استخدام الشعر الرثائي بنوعيه: (الندب والنواح) وقراءة واستنشاد الشعراء فيه وإنشاده، وجمع الأهل والأصحاب حوله في ذكرى عاشوراء، وكان ذلك من العادات المتبعة حينها.

ولم يطرأ على المآتم في عصرهم جديد، سوى نوع من الاستخدام في أسلوب قراءة الشعر، كما حدث مع أبي هارون المكفوف: عندما دخل على الإمام الصادق عليه السلام يقول: قال لي: "يا أبا هارون أنشدني في الحسين، قال: فأنشدته فبكى، فقال: أنشدني كما تنشدون - يعني بالرقة - قال: فأنشدته:

"امرر على جَدَثِ الحسـ ... ـين وقل لأعظمه الزكية"

قال فبكى ثم قال: زدني: قال: فأنشدته القصيدة الأخرى فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر".

ويعقب السيد محسن الأمين على لفظ (الرقة)، فيقول: قوله بالرقة - بكسر الراء المشددة - أي الطريقة التي تستعملونها عند الإنشاد، التي فيها الرقة والطلاوة، والتي توجب التأثير في القلب لا مجرد التلاوة.

❖ وذكرت بعض المصادر الأدبية: أن السيدة سكينة بنت الإمام الحسين كانت تولي شعر النياحة اهتماماً كبيراً... ونقل عن جماعة من شيوخ مكة: "أن سكينة بنت الحسين عليه السلام بعثت إلى سريج بشعر أمرته أن يصوغ فيه لحناً يناح به والشعر هو:

يا أرض ويحكم أكرمي أمواتي ... فلقد ظفرت بسادتي وحماتي

ويذكر أنها لم تكتف بنوح ابن سريج، بل بعثت إليه بمملوك لها يقال له:

عبد الملك، وأمرته أن يعلمه النياحة، فلم يزل يعلمه مدة طويلة.

وقد ظهر في عدد كبير من الأخبار تأييد الأئمة ﴿عليهم السلام﴾ لقراءة الشعر وكتابته والنواح والندب وتلاوة المرثيات في الإمام الحسين ﴿عليه السلام﴾.

ومنها: عندما سأل الإمام الصادق ﴿عليه السلام﴾ أحد أصحابه من الكوفيين "بلغني أن قوماً يأتون قبر الحسين ﴿عليه السلام﴾، من نواحي الكوفة، وناساً، من غيرهم، ونساء يندبنه وذلك في النصف من شعبان، فمن قارئ يقرأ، وقاصٍ يقص، ونادبٍ يندب، وقائل يقول المراثي. فقال: نعم، جعلت فداك قد شهدت بعض ما تصف، فقال ﴿عليه السلام﴾: الحمد لله الذي جعل في الناس، من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا.."

"فالشعر والندب والنواح وقص ما حدث في مقتل الحسين" هي العادات والوسائل التي اتبعت في مرحلة الأئمة ﴿عليهم السلام﴾، وكان أول من قال الشعر في الإمام الحسين ﴿عليه السلام﴾ غير أهل كربلاء: بشر بن حلذم عندما طلب منه الإمام زين العابدين أن ينعي الإمام الحسين لأهل المدينة، عند وصول ركب نساء الحسين إليها، وقرأ عليهم أبياته المشهورة:

يا أهل يثـــرب لا مـــقـــام لكم بهـــا

قـــتل الحـــسين فـــأدمـــعي مـــدرار

المرحلة الثانية: مرحلة الحكومات الشيعية:

وسنقدم بعض الأمثلة على تلك العادات التي اتبعت؛ إما بطلب تلك الحكومات أو بتأييدها لها.

والقصد من ربط هذه المرحلة بالحكومات الشيعية: أنها كانت تفسح المجال بل تعمل على جمع الشيعة في هذه المناسبة، وكانت في أزمنتها حرية إقامة المآتم واجتماع الناس عليها أمر مباح.

- **البويهيون:**

في هذه المرحلة أثناء حكم البويهيين كما يبدو من الذي مر معنا في خبر سنة ٣٥٢ هـ. في بغداد بأمر معزّ الدولة البويهي: نشأت عادات جديدة منها لبس المسوح، والخروج إلى الشوارع بالندب والنواح والإنشاد؛ أي بداية تأسيس لنوع من المواكب، كما أن عاداتٍ هي ليست من العادات الإسلامية، وإن كان الناس يفعلونها عند فقد أحبائهم كصبغ الوجه بالسواد ولطم الصدور والوجوه وشق الثياب أيضاً، دخلت بشكل ما في المأتم العاشورائي، وأما خروج النساء، وإن شكك به لكنه ورد أنه حدث بأوقاتٍ غير أوقات خروج الرجال كما مر.

- **الفاطميون:**

يقول المقريزي في خططه: "انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين، قبر كلثوم ونفيسة، ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالاتهم بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام.. وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الإخشيدية والكافورية في أيام عاشوراء سنة ٣٥٠ هـ.

وهنا إشارة إلى وجود الشيعة قبل الفاطميين، وإحيائهم للمأتم العاشورائي، ومع وصول الفاطميين إلى الحكم حدث تطور مهم في مراسم العزاء الحسيني، وإن تأثر المصريين بعزاء الحسين مرجعه إلى سنة ٦١ هـ حين قدوم السيدة زينب عليها السلام.

وقد اتخذت المراسم أشكالاً تطورت من عام إلى عام منذ السنة الأولى لدخول المعز الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٣ هـ، وكان أكبر تطور على المآتم الحسينية، وقوتها بعد سنة ٥٤٨ هـ بعدما نقل رأس الحسين عليه السلام - على ما قيل- من مدينة عسقلان في فلسطين إلى القاهرة، حيث مدفنه في المسجد المنسوب إليه اليوم.. أما المراسم والعادات فيها فقد ذكرت كالتالي:

"إذا كان يوم العاشر من المحرّم، احتجب الخليفة عن الناس فإذا علا النهار، ركب قاضي القضاة والشهود، وقد غيّروا زيهم ولبسوا لباس الحزن،

ثم صاروا إلى المشهد الحسيني بالقاهرة، وكان قبل ذلك يُعمل المأتم بالجامع الأزهر، فإذا جلسوا فيه بمن معهم مع الأمراء وأعيان وقراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع جاء الوزير فجلس صدراً.. والقاضي وداعي الدعاة من جانبيه، والقراء يقرؤون نوبة فنوبة، ثم ينشد قوم من الشعراء - غير شعراء الخليفة - أشعاراً يرثون بها الحسن والحسين عليهما السلام وأهل البيت، وتصيح الناس بالضجيج والبكاء والعويل.

فإذا كان الوزير شيعياً تغالوا في ذلك وأمعنوا، وإن كان سنياً اقتصروا، ولا يزالون كذلك حتى تمضي ثلاث ساعات، فيستدعون إلى القصر عند الخليفة، بنقباء الرسائل، فيركب الوزير، وهو بمنديل صغير إلى داره، ويدخل قاضي القضاة والداعي، ومن معهما، إلى باب الذهب (أحد أبواب القصر) فيجدون الدهاليز، قد فرشت مساطبها بالحصر والبسط، وينصب في الأماكن الخالية الدكك لتحلق بالمساطب والفرش، ويجدون صاحب الباب جالساً هناك، فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه، والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون، ثم يُفرش وسط القاعة بالحصر المقلوبة، ثم يفرش عليها سماط الحزن، مقدار ألف زبدية من العدس والمسلوقات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة وأعسال النحل والفطير المغيّر لونه بالقصد، لأجل الحزن.. فإذا اقترب الظهر وقف صاحب الباب ببابه، ومن الناس من لا يدخل من شدة الحزن، فلا يُلزم أحد بالدخول، فإذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركباناً، بذلك الزي الذي ظهروا فيه من قماش الحزن، وطاف النوّاح في القاهرة في ذلك اليوم، وأغلق البياعون حوانيتهم إلى ما بعد العصر، والنواح قائم بجميع شوارع القاهرة وأزقتها، فإذا فات العصر يفتح الناس دكاكينهم، ويتصرفون في بيعهم وشرائهم، فكان ذلك دأب الخلفاء الفاطميين من أولهم المعز لدين الله إلى آخرهم العاضد عبد الله".

ويمكننا أن نردّ كثيراً من العادات إلى تلك المرحلة.

وإن إقامة العزاء كانت في الشوارع والبيوت والمشاهد المقدسة والجوامع وقصور الخلفاء، والجدير ذكره: أنه تم إشادة أمكنة خاصة بإقامة العزاء والمآتم، وهي ما تعرف اليوم (بالحسينية).

- الصفويون:

بدأوا كأصحاب طريقة صوفية وانتهوا إلى دولة، حتى سيطروا على معظم إيران وأفغانستان والعراق، وكانت عاصمتهم أصفهان في إيران، حكموا من (١٥٠٢ - ١٧٣٦) دخل الشاه إسماعيل الصفوي إلى بغداد في ٩١٤ هـ، ولقد لقيت المآتم الحسينية رعاية خاصة منهم: "عندما تولى السلطة على العراق الصفويون أو غيرهم من الإيرانيين، كان الإقبال على إقامة هذه المآتم والنياحات عظيماً وكانت حرية الشيعة في إحياء الذكرى الأليمة مضمونة، وقد غالى الشيعة في إقامتها".

لقد أولى الصفويون اهتماماً كبيراً بالمآتم الحسينية وبقية مراسم العزاء باعتبارها من أنجح الطرق الشيعية العاطفية في نشر التشيع الذي تبناه الصفويون، وعملوا على نشره في إيران وإعلانهم المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للبلاد، فاستخدموا العزاء الحسيني سياسياً ودعائياً لنشر التشيع وبسط نفوذهم، وشجعوا على إقامة المآتم وزيارة العتبات المقدسة في إيران والعراق، وبذلوا أموالاً طائلة في عمارة مراقد الأئمة عليهم السلام.

❖ وأما على مستوى العادات والتقاليد وتطوير المعروف منها وإنشاء الجديد منها:

استحدث الصفويون منصباً وزارياً جديداً باسم وزير الشعائر الحسينية، وقد أدخلت هذه الوزارة الكثير من العادات على مراسم المأتم الحسيني العاشورائي: مثال: النعش الرمزي والضرب بالزنجيل والأقفال، والتطبير، واستخدام الآلات الموسيقية، وأطواراً جديدة في قراءة المجالس الحسينية

جماعة وفرادى.

وقد رد البعض، بعض هذه العادات إلى طرق الصوفية، واعتبر البعض أن كثيراً أو كل هذه العادات لم تكن من الفلكلور الإيراني حينها ولا في الشعائر الدينية الإسلامية، إنما نتجت عن دراسات أجراها وزير الشعائر الحسينية في الدولة الصفوية حول المراسم الدينية والطقوس المذهبية والمحافل الاجتماعية المسيحية، عندما زار أوروبا الشرقية في بدايات القرن السادس عشر واقتبس تلك المراسيم والطقوس، وجاء بها إلى إيران واستعان ببعض الملالي لإجراء تعديلات عليها؛ لكي تصبح صالحة لاستخدامها في المناسبات الشيعية، وبما يتناسب وينسجم مع الأعراف والتقاليد الوطنية والمذهبية في إيران.

وبإلقاء الضوء على المرحلة الثانية: مرحلة الحكومات الشيعية البويهية والفاطمية والصفوية، يمكننا أن نستنتج أن نسبة كبيرة من العادات والتقاليد جاءت من خلال هذه الحكومات، وأن كثيراً منها كان نوعاً من إظهار قوة الحكم وغلبة الشيعة والتشيع في سلطة نفوذهم، والبعض منها كان اجتهاداً شخصياً لسلاطين وزعماء تلك المرحلة.

سماحة الشيخ فضل مخدر

عاشوراء في "عيد الغدير" لبولس سلامة

عاشوراء في "عيد الغدير" لبولس سلامة

يعود نظم "عيد الغدير"... للشاعر الأديب بولس سلامة، علاوة على عزم الناظم، كما يفهم من قوله في تصديره للكتاب، إلى ثلاثة أسباب:

أولها: موهبة في سرد القصص المنظومة لفتت الأدباء.

وثانيها: افتقار الأدب العربي للملاحم.

وثالثها: اقتراح السيد عبد الحسين شرف الدين عليه نظم "يوم الغدير". بعدما كان الشيخ عبد الله العلايلي قد تمنى عليه نظم "أيام العرب"، وقد صح عزم الشاعر نظم ملحمة عنوانها: "عيد الغدير" بعد أن تزاحمت عليه الفكر وأيقظت كوامن الوجدان.

تتضمن هذه المنظومة سبعاً وأربعين قصيدة، عدد أبياتها ثلاثة آلاف وأربعمئة وخمسة عشر بيتاً، أولاها قصيدة بدء عنوانها "صلاة"، وآخرها قصيدة خاتمة تكمل تلك الصلاة، وبينهما قصائد تسرد قصة أهل بيت النبوَّة عليهم السلام منذ الجاهلية إلى مأساة كربلاء والتطواف بالهامة الشريفة، فيمثِّل "يوم الغدير" فصلاً من فصول كان لكربلاء فيها ما يزيد على ثلثها.

أتيح لبولس سلامة من الشروط الذاتية والموضوعية ما جعله يُقبل على نظم الملحمة بشغف ويجيده، ومنها:

أولاً: كان شاعراً موهوباً مثقفاً مزوداً بثقافة واسعة وعميقة.

ثانياً: نشأ في أحضان أبٍ شغوف بالسِّير الشعبية، ما كوَّن لديه ملكة خاصة بالقصص الشعري البطولي، متميزة، كان يعبِّر عنها بقوله: "الملحمة

في دمي".

ثالثاً: كان الإخلاص دليله في كل ما كتب، فتجرَّد، كما يقول، من"مذكرات جريح"،"من كل شيء إلا من الحقيقة العارية".

رابعاً: عانى من آلام الأمراض زمناً طويلاً، ولدرجة أن سُمِّي "أيوب القرن العشرين"، والألم مطهِّر للذات، ومصفٍّ للنفس، يتيح لمعانيه أن يشارك الناس معاناتهم، وإن كان نظم هذه الملحمة قد اقتضاه ستة أشهر؛ ثلاثة منها لدرس الموضوع تاريخياً، وثلاثة للنظم تخللها من الألم الممضي الذي يذهل البصيرة ما تخللها، فقد كان يختلس الوقت اختلاساً من الفترات التي يهادنه فيها الألم. فزمن نظم هذه الملحمة التي تسرد قصة أهل البيت عليهم السلام: بطولات وانتصارات ومآسي، هو زمن هادن فيه الألم نفساً كان الإخلاص دليلها، فجسَّدت الحقيقة شعراً ينظم ما قاله مؤرخون عصمهم الله من فتنة سلطان غاشم.

يبدأ الشاعر، كما قلنا، بصلاة يرفعها إلى الله سبحانه وتعالى، يطلب منه فيقول:

يا مليك الحياة أنزل عليَّا
عزمةً منك تبعث الصخر حيَّا

في سبيل الكمال أجر يراعي
ملهم البنت مفصلاً عربيَّا

هات يا شعر، من عيونك واهتف
باسم من أشبع السباسب ريَّا

باسم زين العصور بعد نبي...
باسم ليث الحجاز...

خير من جلل الميادين غاراً
وانطوى زاهداً ومات أبيَّا

كان رب الكلام، من بعد طه

وأخـــاه وصـــهـــره والوصـــيَّـــا

بطل الســيف والتـقى والســجــايا

مـــا رأت مـــثله الرمـــاح كـــمـيًّـــا

يا ســمــاء اشــهـدي ويا أرض قــري

واخـــشـــعي، إنني أردت عليًّـــا

وإن يكن الشاعر، في هذه الصلاة، يذكر بهوميروس عند الألياذة بالطلب من الآلهة أن تلهمه الشعر، وإجادة الإشادة باسم "آخيل"، فإنه يختلف عنه في غير أمر. ذلك أن سلامة يطلب من الله سبحانه وتعالى، وليس من آلهة الشعر، ويطلب أن ينزل عليه، وهو المريض عمة ليقوى، وما يُسدِّد خطاه، ويطهِّر فؤاده، ويُنزِّه جنانه، ويجري يراعه في سبيل الكمال ليهتف. ليس باسم بطل خارق تسيِّره الآلهة القدر، وإنما باسم بطل السيف والتقى من أشبع الصحارى رياً، زين العصور بعد النبي ﷺ ورب الكلام.

إن الفرق كبير بين منظورين؛ يروي أولهما تاريخ شعب تختلط فيه الأساطير بالوقائع بالخوارق، وينشط فيه الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال خارقو القوة، ويحكم مسار سعيهم قدر غاشم يحاول الناس الإفلات من قبضته في صراع مرير يقضي فيه عليهم من دون جدوى....، ما يجعل العبث مأساة كبرى، ويروي ثانيهما تاريخ شعب، لم يقل فيه الراوي غير الحق، يدور فيه صراع بين بطل هو فخر التاريخ، وبين قوى الشعر، يرتضي فيه البطل القدر الإلهي. ويسعى إلى مصيره بوصفه طاعة ليحيي الدين، ويخط منهجاً للأجيال القادمة، يبقى نبراساً ما بقي عيش على وجه هذه الأرض، يتابعه جيلٌ بعد جيل ما يعني أن البطولة اتصال أجيال واستمرار نهج، ومما يقوله الشاعر في هذا الصدد، في خاتمة الملحمة:

يا إله الأكوان أشفق عليًّا

لا تمتني غبَّ العـــذاب شــقــيَّـــا
مــصــدر الحق لم أقل غــيــر حقٍّ
أنت أجــريتــه على شــفــتــيَّـــا
أنت ألــهـــمـــتني مــديح علي
فــهــمي غــيــدقُ البــيــان عليَّــا
وتخــيَّــرت للأمـــيــر أهل البــيـ
ـت قلبـــاً آثرته عـــيـــســـويَّا
هو فــخــر التــاريخ لا فــخــر شــعب
يدعـــيـــه، ويصطفـــيـــه وليَّـــا
لا تقل شـــيـــعـــة هـواهُ علي
إن في كل منصفٍ شـــيــعـــيَّـــا...

وفي سبيل ألا يقول غير الحق عاد الشاعر إلى التاريخ، فدرس، كما يقول، المراجع التاريخية، وقطعاً للظن والشبهات قلما اعتمد مؤرخي الشيعة، بل الثقات من أهل السنة الذين عصمهم الله من فتنة الأمويين، وفي سبيل حل إشكالية التاريخ الشعر/ الشعر التاريخ، وهي في رواية تاريخ أهل البيت عليهم السلام أكثر تعقيداً، إذ ينبغي تحري الدقة والتثبت في الرواية، تقيد، كما يقول، بالتاريخ جهد الاستطاعة، ولو تقيد أكثر لكان كاتباً بالعدل يخضع التاريخ للقوافي، ويضيف موضحاً فرقاً آخر بين ملحمته هذه وبين الملاحم الأخرى: "ومع الانطلاق الشعري الذي حاولته، فلقد بقيت مغلول الجناحين لا أستطيع أن أخلع على الواقعات من الفن إلا بمقدار، ذلك أن الملاحم تدور على الأساطير؛ حيث يسبح الشاعر ولا رقيب عليه إلا ذوقه، وكتابي هذا محوره التاريخ، والتاريخ حرام على الخيال، حتى في الحوادث العادية، فكيف به عندما يستند معظمه إلى الأحاديث النبوية؟". وفي سبيل بيان الأحداث التاريخية جعل للكتاب هامشاً يسهل للقراء، وعلى الأخص غير المسلمين منهم تفهم الكتاب.

لم يبتعد الشاعر عن السَّرد، وهو لحمة الملحمة وسداها، إلا بمقدار، وفي هذا المقدار تصدَّى لبعض القضايا الفكرية، ومنها ثنائيات الخير/ الشر، الحرية/ الاستعباد، الثورة/ القبول، الظلم/العدل...

وفي ثنايا السرد يلحظ القارئ تصويراً يتحول به السَّرد إلى سَرد تصويري أو تصوير سردي، يتألَّق فيه الشعر، ومن نماذج ذلك نقرأ على سبيل المثال:

❖ **في زواج عبد الله والد النبي ﷺ:**

كان ذاك الزواج أقصر عمراً
من حياة الزنابق البيضاء
إن عمر النعماء ومضة حلم
فالليالي حرب على النعماء

❖ **في مولد الإمام علي عليه السلام:**

صبرت فاطم على الضيم حتى
لهث الليل لهثة المكدود
وإذا نجمة من الأفق خفَّت
تطعن الليل بالشعاع الجديد
وتدانت من الحطيم ومرَّت
وتدلَّت تدلِّي العنقود
تسكب الضوء في الأثير دفيقاً
فعلى الأرض وابلٌ من سعود
واستفاق الحمام يسجع سجعاً
فتهش الأركان للتغريد
بسم المسجد الحرام حبوراً

وتنادت حـــجـــاره للنشـــيـــد

ذرَّ فـــجـــران ذلك اليـــوم: فـــجـــرٌ

لـنهـــــار، وآخـــــر للـوليـــــد

هالت الأم صـــرخـــة جـــال فـــيـــهـــا

بعض شيء من همـهـمـات الأســود

يهـــرم الدهـر، وهـو كـــالصـــبح باقٍ

كل يومٍ يأتي بفـــجـــرٍ جـــديد

* **وفي استشهاد الإمام علي عليه السلام:**

هبَّ، في الصـــبح، للصـــلاة عليّ

كـــصـــبـــاح يودِّع الأيَّامـــا

حـاسـراً سـار للصـلاة، كـوجـه الحـ

ق، والحـق لا يطـيق اللـئـــامـــا.

بعد الصلاة البدء، تصوير لواقع العرب في الجاهلية، ولموقع قريش ودورها في هذا الواقع، ولسيدها عبد مناف الذي أهدى للبرية هاشماً، وهو سيد البطاح، يرفد الحجيج، وتسكب كفه الندى في البوادي، وسير رحلتي الصيف والشتاء...، وقد غار منه ونافسه ابن أخيه أمية، وهو:

ذلك الأفـــعـــوان يقـطر ســـمّـــاً

ملت صـــلاً فـــصـــار جـــدَّ الأراقم

ذكـــر، وصـــمـــة الدهور ســيـبـقى

كلمـــا همَّ بالشـــتـــيـــمـــة شـــاتم

ويتأسس الصراع بين الخير/ فخر التاريخ، وبين الشرّ/ الضل، ويستمر بين سلالة للخير تشمل فخراً، وبين سلالة تتصل أراقم، فيبغي حرب بني أمية على عبد المطلب بن هشام:

هـو حـــــرب، وهل أمـــيـــــة إلا

منبع الشـــرّ، فـــابنه حـقــد ناقم

وتتداعى قريش للغدر كالعقبان في فجر الإسلام:

إذا تداعت قـريش للغـدر كـالعـقـبـان

تـسـطـو بـالـبلـبل الـغـــــــــرِّيـد

إن حط المصـــبـــاح في كل عـــصـــر

عـصـفـة البـحـر في الليـالي السـود...

ويضرم صخر بن حرب (أبو سفيان) نار الحرب ضدَّ الإسلام. وهو كما أسلافه وابنه وحفيده:

يجـــمـع المال من فـــجـــور البـــغـــايا

ومن العـــهـــر يشـــرب السلسـبـيـــلا

ورث الحـــقـــد عن أمـــيـــة طفـــلاً

ومـــذ اشـــتـــدَّ حـــارب التنزيلا

تلك هـنـد وزوجـــــهـــــا، فـــــأبو

ســـفـــيـــان وغـــد أبوَّةً وسليـــلا

أوليس الســـــرحـــــان جــــد يزيد

أورث الولد طبـــعـــه في الهـــيـــولى

* في حنين:

والـــنـــبـــي الـــعـــظـــيـــم لـــولا عـــلـــي

وبنو هـاشـم لـظـلَّ وحـــــيـــــدا

شمت الداخلون في الدين كرهاً

وابن حـــرب يكاد يتلو النشـــيـــدا

يدخل الذئب في الحظيـــر نفـــاقـــاً

وهـو مـــا انفك في الســـريرة ســـيـــدا

زوج هـنـد بل أخـــبـث الناس جـــداً

ووليـــــداً وزوجـــةً وحـــفـــيــــدا

يـا إلـهـي لـقــــــــد لعـنـت يـزيـداً

قـــبـل أن تحـــمـل النســـاء يـزيدا

هو ذا "منبع الشر" يتمثَّل ويضرم نار الحرب ضدّ "فخر التاريخ/منبع الخير"، وإذ يتتبع الشاعر هذا الصراع وصولاً إلى كربلاء، يتتبع أيضاً القضية الأساس من قضايا هذا الصراع وهي الولاية، ومنذ حديث الدار:

وإذ بـالـنـبـي يـرسـل قـــــــــولاً

رنَّ في مـسـمـع الـزمـان الـبـعـيـد

أنــت مــنــي ووارثـي ووزيـــري

وعلى الحـوض أنت بكر شـهـودي

مروراً بهجرة الرسول ﷺ ومبيت علي عليه السلام في فراشه:

إن ينم فـي مـضـاجـع الموت حـبـاً

بالـنبي العظيم، فـالله سـاهـر

وبحديث الغدير ومفاده:

يا إلهي من كنت مـولاه حـقـاً

فـعليٌّ مـولاه غـيـر نكيـر

يـا إلـهـي وال الـذيـن يـوالـون ابـن

عــمي، وانصـر حليف نصـيـري

كن عدواً لمن يعاديه واخذل

كل نـكـس وخـــاذل شـــرير

وصولاً إلى ضياع حق الولي:

وانجلت عن ضـيـــاع حق ولـيّ

كـــان إلا عن حـــزنه مـــشـــغـــولا

وتـوالت مـــبـــايعـــات ثـلاث

طمـــست نور حـــقـــه المأمـــولا

وبثورة شعبية أوصلت الولي إلى حكم عادل، خاض حربين في الجمل وصفِّين، ثم آلت الأمور إلى كربلاء، حيث أضرم نار الحرب يزيد، من لعنه الله، قبل أن تحمله النساء وهو الابن الأخير لتلك السلالة من الأراقم، ويبدو أن قدراً يحكم هذا الصراع يسجل الشاعر حضوره عندما يتحدث الشاعر عن "أهل الكساء"، فيقول:

فـــيـــجـــيب النبي: هذا حـــسين

هو ســبطي وخـــامس في الكســـاء

وعلت جـــبـــهـــة النبي طيـــوف

كـــوشـــاح الغـــمـــامـــة الدكناء

لمح الغـــيب! يا لهـــول الليـــالي

مـــرعـــدات بالنكبـــة الدهيـــاء

وكـــأن الجـــفـــون تنطق هـمـــســـاً:

"يا إله الســـمـــاء صُن أبنائي".

يلمح رسول الله ﷺ الغيب، ويرى الليالي مرعدات بالنكبة الدهياء، وهي كربلاء. ويدور الصراع بين نهجين واضحين، ومماً يدل عليهما، من نحوٍ أول:

أزهد الناس منذ مـا عـرف التـأريـ

خ زهـداً فـــــخـلَّـد الـزُّهَّـادا

رام تقـــويم كل جـــذعٍ مـــريدٍ

بـهـظتــــه أهـواؤه فـــــانـآدا

يغـــمـــر الناس عـــدله بالعطايا

لا يرى أعــــبــــداً ولا أســــيــــادا

هاله أن يرى دمــــوع اليــــتــــامى

والمســــاكين تمزق الأكــــبــــادا

ويرى المســــرفين تنهب بيت المـ

ال في جــنــة الــنــظــام اطــرادا

طــمــــســت سنة الرســــول

فــأحــيــاها عليّ وجــدَّد الأبرادا

هاج ســــخط القلوب نهجُ علي

في صــدور تفــجّــرت أحــقــادا

وفي نحوٍ ثان:

... أرهقــتــهم عــبــادة الله

فــارتدّوا طغــاةً تقــبِّل الأصنامــا

يكرمــون الألقــاب والمال مــجلـ

وباً بجــرم، ويعــبــدون الحــرامــا

ويمضي مسار هذا الصراع الذي بيَّنا طرفيه وموضوعه ونهجيه والقدر الذي يحكمه إلى كربلاء...

في بداية الكلام على كربلاء، يشكل الشاعر فضاء تظهر فيه صورة يزيد، سليل أولئك الأراقم، فيخاطب المؤذن، مكنِّياً عنه بـ "رافع الصوت داعياً للفلاح"، طالباً منه أن يخفض الصوت في أذان الصباح، وأن يترفق بصاحب العرش، المشغول "عن الله بالقيان الملاح"؛ ذلك أن "ألف الله أكبر لا تساوي، بين كفي يزيد، نهلة راح».

وبعد أن يصف خمرة يزيد أو راحه، الشعلة، يكمل خطاب المؤذن، فيطلب منه أن لا يهتف، وإن يكن لا بدَّ من أذان، لأن هذا أمر لا يستطيع يزيد أن يلغيه، فليعتصم المؤذن بالبحاح، وليهمس كهمس الفجر ندبان في سماع

الأقاح، ذلك أن سمع صاحب العرش وقف على صدح المثاني ورنة الأقداح، وذكر الله عنده مأتم لأفراحه...، وعقله خافق بخفق نهود، وقلبه بتعتعة السكر، ولسانه خمد فيه النطق ووعيه غاض...

في هذا الفضاء ثنائية قوامها طرفان متضادان: أولهما المؤذن الرافع الصوت داعياً للفلاح، وثانيها يزيد المشغول عن هذا الصوت وعن ذكر الله بالقيان والخمرة وخفق النهود... وثنائية التضاد هذه تثير مفارقة كبرى تتمثل في أن مهمة يزيد أن يلبِّي الدعاء، بل أن يكون هو صاحب هذا الدعاء، لكنه تحوَّل إلى صاحب عرش يستبدل الفلاح بالقيان الملاح وذكر الله بنهلة الراح، ويستمر في طغيانه إلى أن يفقد عقله فيتعتع قلبه السكر، ويخمد لسانه، ويغيض وعيه...

وإن صحا ذات يوم يدعو بالخيول لا لمجدٍ ولا لجهاد، وإنما للسِّباق...، وفي الميدان يخيب فأل الفرسان، إذ يفضح "أبو قيس"، وهو قرد الخليفة، الخيل، وينتهي بنجاح:

فيزيد يكسو القرود حريرا
واليتامى في غصَّة الملتاح

ملأ القصر بالقرود، ولم يهمـ
ـل كلاباً سخيَّة بالنباح

ويزيد يثيرها لهراشٍ
في مقاصير داره الممراح

وهنا تحوُّل، أو مسخ، آخر يتمثل في تحويل وظيفة الخيول والفرسان من المجد والجهاد إلى سباق الخيل وهراش الكلام، وفي مسخ الفرسان؛ إذ يفوز القرد في السباق، وإذ تغدو مقاصير قصر الخلافة ميدان هراش لكلاب كسيت بالحرير في الوقت الذي يجوع فيه فقراء المسلمين ويعرون...

هذا هو يزيد الذي أبى ابن هند.. إلا أن ينصِّبه راية للرَّشاد والإصلاح.

وعلى الرغم من آثام الأب الجسام، فهو إزاء الابن كريشة في جناح:

وليس يخفى على المرقَّشة
الأفعى صفير من صلِّها الفَّحاح

وهنا تبرز المشكلة الكبرى: طيف لهذا "الصِّل الفحَّاح"، ابن المرقَّشة، فاقد الدين والعقل والوعي... أن يُنصِّب رايةً للرشاد والإصلاح، أن يبايع خليفةً للمسلمين؟ وكيف للحسين ﷺ، وحق الحسين كالإصباح، أن يبايع هذا الصِّل الفحَّاح، وهو يعرف حقيقته، ويعرف عنه، إضافة إلى ما سبق، أنه كان يبكي عندما أخبره والده على أن يكون في عداد جيشٍ وُجِّه لقتال الروم، فهناك في المعركة:

يتمنَّى اللقاء نجل عليٍّ
ويزيد يبكي لذكر السلام

يقتضي مسار الأحداث أن يكون جواب الحسين: لا، لا أبايع...، ويقتضي، أيضاً، أن يفكر الحسين ﷺ في الإصلاح والتغيير..، وكأن الزمن يعود إلى أيام مكة وهجرة رسول الله منها إلى المدينة، فيقرِّر الحسين الهجرة من المدينة، حيث يستحيل البقاء في مكة، وتكون هذه الهجرة الهجرة الثانية في الإسلام:

ذكر السبط هجرة الجد منفيـ
ـياً، سقته الآلام جاماً دهاقا

وفي مكة يأتيه نداء أحرار تداعوا في الكوفة، بعدما أرهقهم ظلم الأمويين الذين كموا الأفواه، وسلبوا الأرزاق، وثلموا الدين الحنيف، وارتكبوا المعاصي، أتاه النداء يقول:

يا ابن بنت الرسول أقدم، وفي
صحبك تمشي ملائك أجواقا

وأغثنا فإنَّ جور يزيد

بث فـينا الشـقـاء والإمـلاقـا

إن تجـئنـا، فـإننا ليـزيـد

قـد شـحـذنا المهنَّد الفـلاقـا

حنَّ ماء الفرات، يا ابن بنت رسول الله

شـوقـاً مـتى تغـيث العـراقـا؟

وقبل أن يلبي الحسين الدعوة، ويغيث العراق، يرسل مسلم بن عقيل ليخبر شيعته بأنه نذر للهدى حياته وليختبرهم:

أتراهـم يسـتـأسـدون لحقٍّ

أو يميـلون للـنَّسـيم المواتي؟

مسار الأحداث يقتضي هذا، أن يبلِّغ الحسين شيعته بحقيقة دعوته وأن يختبرهم، ويلاحظ أن من السرد والخطاب تركيزاً مكثفاً: أبلغ أنني للهدى نذرت حياتي، وتبين إن كانوا يستأسدون للحق أو يميلون للنسيم المواتي؟ وهذان موقفان متناقضان يتمثلان في صورتين شعريتين.

يصل مسلم إلى الكوفة بعد رحلة صعبة... يبايعه الألوف، ثم ينفضُّون من حوله، مثلاً مع النسيم المواتي.

ويتبين للشاعر، في المواجهة، نهجان يمثِّلهما تساؤل مسلم الوارد في إجابته لشريك بني الأعور لمّا عاتبه عندما لم يقدم على قتل ابن زياد، إنه يفقد ذاته إن رام الغدر يقول:

طـالبـيٌّ أنـا، فـلـو رمت غـدراً

لتـلاشت في سـاعـدي عـضـلاتي

... أتـرانـا نـرد غـدراً بـغـدرٍ

أو شـمـاتاً وخـسَّـة بشـمـات

يبقى مسلم وحيداً، ثم يقتل هو وهانئ، ويرحل الحسين بأهله وأبناء عمه وأنصاره إلى الكوفة، ويجيب من ينصحه بالعدول عن ذلك: بأن حفظ

شريعة جدِّه تقتضي الخروج:

فـأجـاب الحـسين: تعلم عـبـد

الله، أني مـا رمت جـاهاً ومـالا

بل حـفـاظاً على شـريعـة جـدِّي

إن ليـل الآثـام والبـغـي طـالا

وينحو المنحى نفسه الحوار الذي يدور بينه وبين ابنه علي الأكبر...

وينحو، في منحى آخر، قدري عندما يقول، وكأنه يستعيد ما لمحه جده في الغيب كما مرَّ بنا:

وقف السبط وهو في شبه رؤيا

ألبسته على الجمال جمالا

قـال: إني أرى دمـاءً وأشـلاءً

وغـدراً وخـسـَّة واغـتـيـالا

حـفـرتي بينهـا تحفُّ إليـهـا

شـيـعـتي، يلثمـونهـا إجـلالا

والمنحيان، كما يبدو، ليسا متوازنين أو متضادّين، إذ كان الخروج نفسه الهادف إلى حفظ الشريعة واجب / قدر لا بدَّ منه، وأي تخلٍّ عنه هو تخلٍّ عن أداء الحق الواجب، وهذا ما يفهم من قول الحسين: إن رسول الله قد أمرني بأمر وأنا ماضٍ فيه. وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فأداء الواجب/ القدر طاعة لله في سبيل حفظ الدين وهداية الناس وخطٌّ نهج لهم:

قـاتلتني آباؤهم، فلقـيت

الموت منهم، وذقـتـه أشكالا

كلمـا قـام للصـلاة المصلي

إذ يحـــيـي مــــحـــــمَّـــــداً والآلا

يذكـــرون الحـــسين حين يهـــيب الحـ

ق بـالـنـاس: حـطـمـــــوا الأغـــــلالا

فـــيـــرون الشـــهـــيـــد ســـبط رســـول

الـلـه يـدعــــــــو لـلـجـنـه الأبـطـالا

فــــيكون القــــتــــيل بالطفٍّ للأحـ

رار رأســــاً وللهـــدى مـــشـــعـــالا.

وهذا الفهم يفسِّر مضيّ الحسين إلى مصير يعرفه، وهنا الاختلاف مع الملحمة، فالوقائع من نحو أول، تاريخية مسبَّبة، مقنعة وليست أساطير أو خوارق، والبطل من نحو ثان، إنسان عادي يخضع لشرور الحياة العادية، والقدر من نحو ثالث ليس مفروضاً من قوى طاغية عابثة قهراً للإنسان من دون أي هدف ويقاوم من دون جدوى، وإنما هو فعل لصالح الناس يعيه البطل ويرتضيه بوصفه واجباً، وفعل طاعة، وينفذه مضحياً ليحقق هدفاً في الدنيا، وهدفاً آخر في الآخرة.

ويمضي الركب من دون أن يعوِّقه العلم بمصير مسلم وهانئ...، ويلتقي بالحر بن يزيد الرياحي، وينتهي الأمر به إلى النزول في كربلاء، ويلحظ الشاعر آية النبل لدى الحسين، في تعامله مع جيش عدوه:

جــــاد بالماء، والميـــــاه حــــيـــــاة

فــــأعــــاش الأراقـم الأشــــرارا

مــــــوقـنـاً أنـه يـخـلِّص إمَّـــــا

أمــــــويـاً أو تـابـعــــــــاً مـكَّـارا

آيـة الـنـبـل أن تـطـيـق عـــــــدواً

كـيـف تدعـو من غـاثه مـخـتـارا !؟

ويكرر الحسين، لدى نزوله في كربلاء، هدفه من طاعة القدر، وينطلق

في فعله/ سعيه من رؤية الإسلام الشاملة إلى الحياة:

إنَّ هدي الدنيـا سـحـابة صيفٍ
ومـتـى كـانت الغـيـوم قـرارا؟

حـسـبي الموت يلبس الموت ذلاً
مـثلمـا يكسف اللهـيب البـخـارا

إنما الموت رقـدة وانتـقـال
وأجيء الأعـاظـم الأبـرارا....

وتتكرر صورة المِسْخ، فإن يكن يزيد قد تحوَّل بالدِّين الحنيف والخلافة والخيل ودار الخلافة... كما مرَّ بنا آنفاً، فإن يده القاتلة، شمر بن ذي الجوشن، مسخٌ ليس على مستوى تمثيل الشرّ فحسب، بل على مستوى الجسد أيضاً، ففيه عناصر من الثعالب والقرود والحرابي والأفاعي والسعالي والعقارب...، ما يشكل وحشاً يذكِّر بذلك الوحش الذي تحكي الأسطورة أنه فتك بإله الخير البهي الجميل، والفارق أن الخنزير البري وحش أسطورة، وشمر وحش تاريخ يراه الشاعر في هذه الصورة:

أبرصـاً كـان ثعلبي السـمـات
أصـفـر الوجـه أحـمـر الشـعـرات

ناتئ الصدغ، أعقف الأنف
مـسـوّد الثنايا، مـشـوّه القـسـمـات

صـيغ من جـبـهـة القـرود
وألوان الحـرابي، وأعين الحـيَّـات

منتن الرِّيح، لو تنفَّس في الأسـحـ
ار، عـاد الصـبـاح للظلمـات

يسـتـر الفـجـر أنفـه، ويولي
إن يصـعِّـد أنفـاسـه المنتنات

ذلك المسخ، لو تصـدَّى لمرآة
لشـاهت صـحـيـفـة المرآة...

هذا المسخ يحرِّم ماء الفرات، وهو مشاع للبغايا، للوحش، للحشرات، على الحسين وأهله وأنصاره، وفي مواجهته يقف الحسين: جده الرسول، أبوه علي، أمه خير بنت أمها وردة المشرقين، بينها مهبط النبوَّة، عمه حمزة أسد الله، عمّه الآخر جعفر الطيار، وليس غيره في الأرض سبط نبي، يسألهم: لماذا تُطفون ؟

يجيب شمر:

ستموتون مثلما تحرق الرمضـ

اء، في وهجها طريء النبات

أو تلبون رغبة ابن زياد

علكم تظفرون بالرحمات

ويكون قرار الحسين أن ينصرف إلى قراءة القرآن والصلاة, ويرى مصيره:

إنني قد رأيت جدي وأمي

وأبي والشقيق في الجناتِ

بشروني أني إليهم سأغدو

مشرق الوجه طائر الخطوات

يخبر أصحابه ويخيِّرهم بين البقاء معه والنجاة بأنفسهم، فيقرِّرون البقاء معه، وتدور معركة يغلب فيها في الظاهر الشر والموت، ولكن الغالب الحقيقي هو الهازئ بالحياة في سبيل حياة أفضل في الدَّارين:

... يغلب الموت هازئٌ بحياةٍ

لا يراها إلا عميق سبات

... قال: يا فضلة النفايات جاءت

كالجراثيم من شتيت الجهات

... إن صدراً يستهدف الحق صرفاً

ليس يخشى طعن القنا والظبات

ليس يخشى طعن القنا والظبات

والمغلوب الحقيقي هو كلب لا ينبري لنباحٍ لو درى أنه عديم الرّعاة.

يلمح الخبز، إذ يهرّ ويعوي

فيكون النباح للكسرات

تدور المعركة ويواجه الأبطال مصيرهم، ويعبِّر الشاعر عن نتيجة المعركة مكرراً في صورة أخرى ما سبق أن قاله:

... ينيرون في دفء النصارى

فحباهم زرع الخلود نميًّا

وأراق "العبيد" مهجة أهل البيـ

ـت، فاستشهد الحسين أبيا

ومضى للهلاك وغد زيادٍ

ولواء الحسين ظلَّ عليا

وتتمثل البطولة، هنا ليس في القتال نفسه قتال الأبطال فحسب، وليس في قبول القدر بوصفه طاعة والمضي في تنفيذه فحسب أيضاً، وإنما كذلك في وعي المفارقة العجيبة الثانية والقتال من أجل تغييرها وخط نهج لذلك يتبع على مدى الأزمان، وهذه المفارقة هي، ملاحظين أن الأسماء، هنا رموز تتغير بتغير الأمكنة والأزمنة:

يا حبيب الحسين، قال حسين:

كيف تدعو ولا أرد الجوابا

عجباً للزمان يطعن أهل البيـ

ـت غدراً، ويستحب الكلابا

بل ذيول الكلاب، فابن زياد

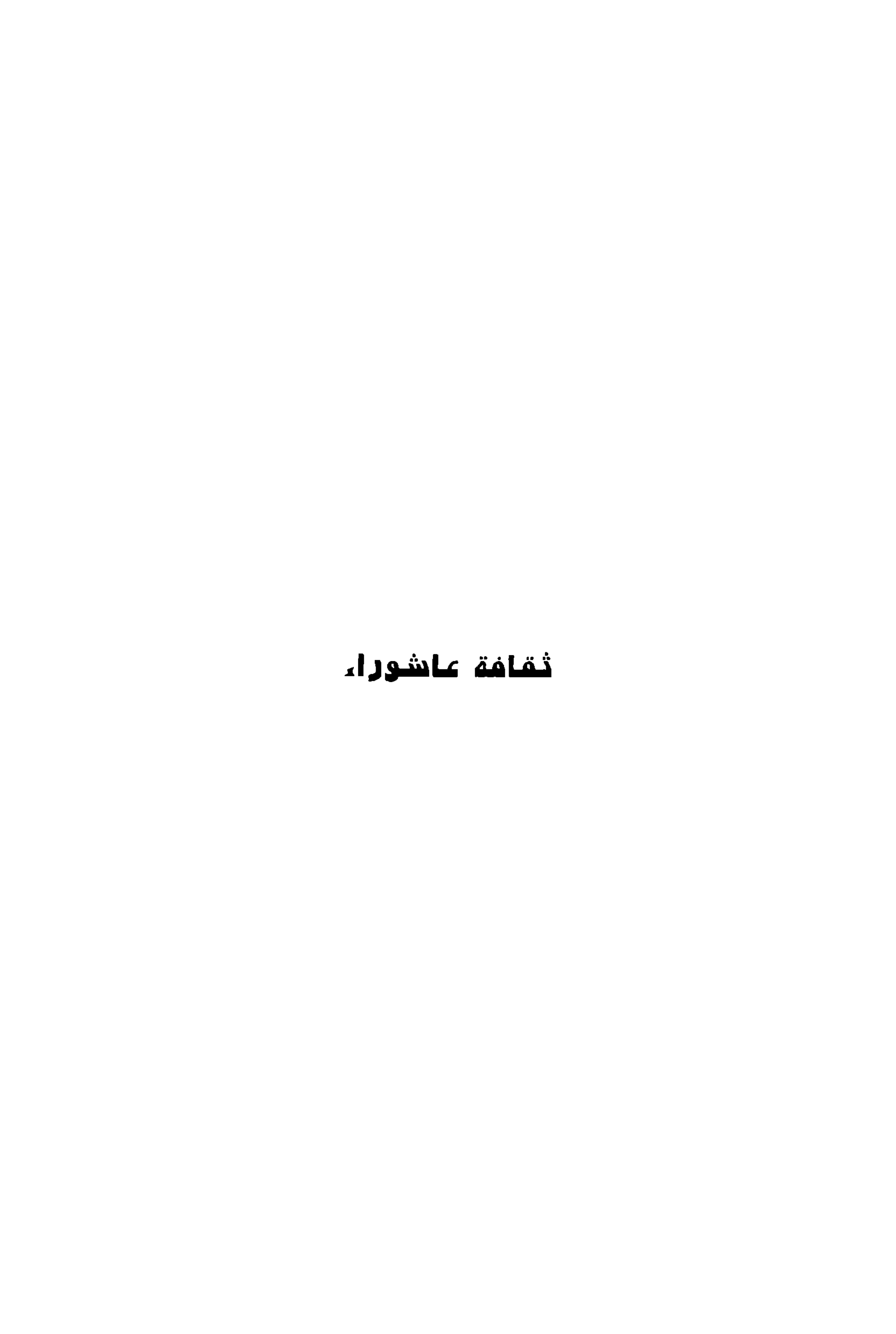
شاقهم في كلابه أذنابا

إن هذا النهج الداعي إلى وعي الواقع الرديء وتغييره ما زال يتَّبع، وبه يخلَّد واضعه ومتبعه، ويتم التغيير، ويبقى ملهماً للشعراء طوال الزمان،

وبخاصّة أولئك الذين عاشوا أيّامهم متألمين كما تألم، أبطال كربلاء، ومنهم الشاعر الأديب بولس سلامة الذي يقول في ختام قصيدة الوقيعة:

دمك السـمح، يا حـسين ضـيـاء
في الدياجـيـر يلهم الشـعـراء
أي فـضـل الشـاعـر منك
اللآلئ، يصـوغ منهـا رثاء
شـاعـر مـقـعـد بريح مـهـيض
كل أيامـه غـدت كـربلاء

د. عبد المجيد زراقط



ثقافة عاشوراء

ثقافة عاشوراء

ثمة قرارات كثيرة لمضامن السيرة الحسينية والذكرى العاشرة من محرّم.

بعضها تناول الظروف الاجتماعية والسياسية التي رافقت هذه الذكرى أو النهضة، وبعضها تناول سيرة الشخصيات التي شاركت فيها من المعسكرين، إلى من سحبت عن حركات التمرد التي أعقبت العاشر من محرم، إلى دور المرأة والسيدة زينب عليها السلام تحديداً في حماية أهداف النهضة الحسينية، وهكذا حفلت مكتبة الشيعة بمئات المؤلفات التي تشبه بعضها حيناً وتختلف حيناً آخر، عند تعرضها لهذه الذكرى التي اتسع نطاق إحيائها في لبنان وأنحاء كثيرة من العالم الإسلامي بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

طبعاً هناك من تعرض بالنقد لهذه الظاهرة، تارة من زاوية "التطبير" الذي يدافع عنه بعض علماء الشيعة ولا يزال يمارس في أنحاء واسعة في العراق وباكستان وإيران ولبنان، وإن كانت نسبة اللجوء إليه في تراجع واضح، ويذهب منتقدو ظاهرة "التطبير" إلى ما يثيره منظر الدماء التي تسيل من الرؤوس وعلى الوجوه من اشمئزاز وما تعبّر عنه من تخلّف، لا ينبغي بعد اليوم وفي هذا العصر التمسك به أو اللجوء إليه. وإذا كنا بدورنا مع نقد هذه الظاهرة، فلا بأس من الإشارة أيضاً إلى ظواهر مماثلة موجودة أيضاً حتى عند المسيحيين الذين تقوم بعض جماعاتهم وفي مناسبات محددة بتكرار عملية الصلب التي تعرّض لها السيد المسيح عليه السلام

نفسه، كما يعتقدون بها؟ فيدقون المسامير في أيديهم وأرجلهم ويضعون الأسلاك حول رؤوسهم.. ويتركون الدماء تنزف من أجسادهم. ويسير بعضهم مسافات طويلة وهو يحمل صليباً ضخماً، على كتفيه... وتنقل لنا شاشات التلفزة مثل هذه المشاهد من أنحاء كثيرة من العالم؛ حيث تمارس تلك الجماعات المسيحية شعائرها وطقوسها. والمقصود بهذه الإشارة أن "التخلف" في بعض الظواهر والممارسات الدينية، ليس "حكراً" على الشيعة وحدهم، بل يشترك معهم فيه آخرون، حتى من عالم التقدم والحداثة.

لقد كتب الكثير عن السيرة الحسينية وعن عادات إحياء مراسمها، وكيف وصلت إليها، وما تعرض له الشيعة في هذا الزمن أو ذاك من ضغوط أو قيود لمنعهم من إحياء عاشوراء، وكيف تحولوا إلى ذلك سراً في بيوتهم.. وصولاً إلى يومنا هذا وتحديداً بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، حيث تحولت عاشوراء إلى طقس سنوي علني يحتفي الشيعة به من الهند إلى باكستان والعراق ولبنان وصولاً إلى البلدان غير الإسلامية.. ومن على المنابر ومكبرات الصوت - التي تزعج البعض حيناً - إلى القنوات الفضائية ووسائل الإعلام المختلفة. ما أريد التحدث عنه من خلال هذه الإشارة إلى انتقال إحياء عاشوراء من السرية إلى العلنية هو الأمر التالي:

- إننا لا نستطيع أن نفصل هذا الإحياء، وتفاصيله، عن تطور وضع الشيعة عموماً. وضعهم السياسي والثقافي والاجتماعي في البلدان التي يعيشون فيها. فكلما زادت عوامل ومستويات القوة في أوضاعهم هذه، انعكس ذلك مباشرة ليس على فرصة إحياء عاشوراء واتساعها، وإنما أيضاً على فرصة توجيه مضمون عاشوراء نحو هذا الجانب أو ذاك من جوانبها كافة. أي أن وضع الشيعة العام يدفعهم في مرحلة معينة إلى الاكتفاء من عاشوراء بالمظلومية والانكفاء، بينما يدفعهم وضع آخر إلى استلهام التضحية والشهادة من أجل إسقاط الظالم ومواجهة الانحراف وحفظ الحق والشريعة. وبهذا المعنى يمكن التأكيد على نقطتين:

١- كلما مورست عاشوراء سراً، وبعيداً عن الأعين ارتفع فيها منسوب المبالغة، والشطحات، وأصبحت بلا قيود، تخضع لثقافة من يقرأ وثقافة من يستمع، وتخضع إلى انكفاء الشيعة العام في مجتمعاتهم. وهكذا تخلق عاشوراء في هذه الحالة شخصية شيعية تعتقد بالخرافة، وتعجز عن المواجهة. وتتعمد عند منطلق "اعتداء" الآخرين عليهم وعلى حقوقهم.

٢- كلما مورست عاشوراء علناً، تراجعت نسبة المبالغة فيها، وباتت تأخذ بالاعتبار محيطها الثقافي والسياسي والاجتماعي، الشيعي وغير الشيعي في وقت واحد. وهذا يفسر كيف اختفت من السيرة الحسينية الكثير من الوقائع التي كانت تنسب الخوارق إلى البشر، وتضفي الأساطير على ما جرى في ساحة المواجهة. وربما لا يزال بعض ذلك مستمراً في هذا البلد أو ذاك...

أي أن تقدم وضع الشيعة العام، هو الذي يدفعهم إلى إعادة التمحيص في ما علق بعاشوراء من شوائب ومن خرافة، وليس العكس هو الصحيح كما يظن البعض. وهذه مسألة تتراكم فيها عوامل التقدم، ولا تحصل بالصدمة أو المواجهة مع الشعائر؛ مما يصح قوله عن إحياء عاشوراء في لبنان على سبيل المثال، لن ينطبق بطبيعة الحال عن ما يمكن قوله بشأنها في باكستان على سبيل المثال، حيث التوتر يخيم على العلاقة بين التنظيمات الشيعية والسنية، وصولاً إلى ارتكاب المذابح المتبادلة، وحيث الشيعة لا يمتلكون من مقومات القوة العامة التي يمتلكونها في لبنان.

إذن ليس تصحيح ما في عاشوراء هو الذي سيغيّر وضع الشيعة أو يجعلهم أكثر عقلانية أو ثقافتهم أكثر اتساعاً. من دون أن ننفي مساهمتها في التأثير على بعض جوانب التحريض في هذا الاتجاه أو ذاك. فالتقدم العلمي والاكتشافات الهائلة التي غيّرت وجه أوروبا هي التي سمحت لها بإقصاء الكنيسة عن مواقع النفوذ والتأثير الروحي والزمني، وليس إقصاء الكنيسة هو الذي مهد للاكتشافات العلمية وللتقدم الصناعي.

والهند التي تملك سلاحاً نووياً، ومنها يذهب المئات من الخبراء إلى الولايات المتحدة للعمل في قطاع التكنولوجيا العالية في مجال البرمجيات وسواها، ينتمون إلى مجتمع يقدس الأبقار من جهة ويغتسل في نهر مقدس عن جهة ثانية...

وفي الصين التي تدين بالكونفوشية وتمارس طقوسها الوثنية هي قوة عظمى يخشاها العالم، والتقاليد اليابانية، والأساطير المرافقة لتلك التقاليد لم تمنع اليابان من أن تكون قوة اقتصادية وتكنولوجية وعلمية لا يستهان بها. ثم من قال: إن أوروبا نفسها ليست مسيحية، وأن الولايات المتحدة لا تشن حروبها الحالية باسم عقيدة تحملها وتعتبر نفسها من خلالها مخلصة العالم؟ وأن جورج بوش نفسه يصلي صباح كل يوم قبل أن يبدأ اجتماعاته... وإسرائيل والصلاة أمام حائط المبكى، وارتداء القل والسبت الذي لا يعلمون منه... وهي على ما هي عليه من قوة و... تكنولوجيا؟!

إن عاشوراء كانت تمارس في إيران طيلة عقود بالطريقة نفسها التي تعرفونها، من البكاء والنحيب ومن مسيرات اللطم والتطبير وحمل السلاسل وما إلى ذلك من مظاهر.. فلماذا تحولت هذه العاشوراء نفسها مع الإمام الخميني إلى مرتكز للثورة على الشاه، وإلى حافز للتضحية وللشهادة حتى تحقق النصر الذي قال عنه الإمام الخميني: بأن كل ما عندنا هو من عاشوراء أو من بركات عاشوراء؟

أعتقد أنه بعد الثورة الإسلامية في إيران، لا يمكن على الإطلاق أن نتحدث عن عاشوراء التخلف وعن عاشوراء الانعزال، وعن عاشوراء التواكل أو المظلومية.

بعد الثورة في إيران أصبحت عاشوراء، بما هي عليه، حافزاً للتعبئة وللتضحية وللنهضة والثورة.

هذا هو الدرس الذي تعلمه الشيعة في لبنان، من الوظيفة الإيرانية

الخمينية لعاشوراء. كانت عاشوراء طقساً تقليدياً في لبنان فأصبحت مخزوناً نفسياً واعتقادياً وتعبوياً ضد الاحتلال، إلى أن انتصرت عليه. وقد حصل ذلك وإحياء عاشوراء كان يتم على ما هو عليه من دون تنقيح أو تجميل أو عقلنة.

ربما يتساءل البعض قائلاً:

نعم حسناً لقد فعلت عاشوراء ذلك، وهذه هي وظيفتها، وهذا دورها المفترض في إعداد الإنسان المسلم ورسالته وثقافته. ولكن لماذا البكاء والنحيب، وتحول القضية إلى مأساة لا تتناسب ومقام الإمام الحسين ﷺ، ولا مع أهداف ما قام من أجله؟ ولا مع دوافعها إلى الثورة والتحدي! ألا يساهم البكاء في ثقافة الضعف والمظلومية؟

تحتاج هذه القضية إلى نقاش واسع.

أنا أريد أن أناقش هذه المسألة من زاويتين؛ ولا أريد أن أناقشها على خلفية الأحاديث والروايات التي تتحدث عن ثواب من بكى أو من سال دمعه لمصاب الحسين.

الرواية الأولى:

البكاء: هو ظاهرة إنسانية بالدرجة الأولى، وهو أساس رقة القلب الذي يقسو فيصبح أقسى من الصخر.

البكاء: هو تنفيس للاحتقان الداخلي الذي يختزنه الإنسان لألف سبب وسبب، وهذا له أهمية كبيرة على المستوى النفسي.

إن كل أمراض العصر الحديث مثل التوتر والقلق تعود في كثير من أسبابها إلى فقدان القدرة أو الفرصة على إخراج ما يعتمل في الصدور والقلوب من احتقان، قد تراكَمَ بفعل صعوبات الحياة وقساوتها. (والبكاء هو أحد هذه الفرص المهمة والثمينة).

إن البكاء على مصاب الإمام الحسين عندما يتوسع المقرئ في سرد

تفاصيل ما حصل، يخلق حالة من التواصل الإنساني مع مصيبة تعرض لها شخص بمنزلة الإمام الحسين ﷺ ومكانته، وتعرض لها أهل بيته وعائلته وأطفاله. ومثل هذا التواصل الذي يحققه البكاء يقرّب الإنسان من عائلته أولاً، ومن كل مصائب الآخرين ويوحده معهم. ومن جهة ثانية عندما يقرأ الشيعة مجالس العزاء في مآتمهم فلكي يقارنوا صغير مصيبتهم بعظم مصيبة الإمام الحسين ﷺ، فيهون عليهم ما حل بهم، مقارنة مع ما حل بالإمام وآل بيته.. وفي هذا إحياء للذكرى من جهة، وربط عاطفي معها، وتصغير لشأن الموت ولفقدان أي عزيز الذي يعتبر من أصعب الأمور وأشقها على الإنسان.

إن البكاء ينقل الإنسان من عالم الصراع والتنافس، ومن عالم القوة والسلطة، والقسوة والتجبر، إلى عالم الرقة والضعف، والرحمة والتعاطف.. إنه يخفف وحشية الإنسان التي تزداد يوماً بعد آخر.

ولكي يتحقق هذا البكاء لا بدّ من قراءة تثير الحزن والألم، وتحرك العاطفة والخيال.. فلا فصل بين هذا وذاك.

وإذا لم يكن البكاء أحد أهداف مجالس عاشوراء فلا داعي لإحيائها. ويمكن أن نكتفي بقراءتها في الكتب مثل ما نقرأ سيرة أية ثورة أو ملحمة بطولية عرفها التاريخ..

إن عالم اليوم أصبح أكثر انفتاحاً وتواصلاً. وأصبح من المتعذر تقريباً على أية جماعة دينية أو غير دينية أن تمارس شعائرها بسرية تامة، وهذه سمة أساسية من سمات عصرنا. هذه السمة تدفع البعض إلى القول: بأنه ما عاد بأمكاننا أن نخفي ممارسات وطقوس لا تمت إلى "عقلانية" العالم الذي أنتج كل هذه المعرفة وكل هذا التقدم.

هذه قضية واسعة.

ولكن ما يمكنني قوله، ولو بشيء من المبالغة: إن أكبر مصيبة منيت بها

الإنسانية في هذا العصر هي هذه العقلانية المنفلتة من ضوابط الدين والغيب. هذه العقلانية التي جعلت العقل إلهاً ومعبوداً أنتجت العولمة المتوحشة المنفلتة من ضوابط الأخلاق والمبادئ والقيم..

فذروة العقلانية أن يبحث الإنسان عن مزيد من الربح وعن تكديس المزيد من الثروة، والعقلانية لا تفترض التسامح أو المحبة أو التضحية، فمن يقدر يفعل ما يشاء، ومن يمتلك القوة يهيمن على من لا يمتلكها. إن خط العقلانية المتصاعد جعل ثروة أغنى ٢٠٠ فرد في العالم تفوق دخل ٤١٪ من سكان العام (نحو ثلاثة مليارات نسمة). وجعل ١٪ من ثروة ٢٠٠ مليارديرتؤمن دخول جميع أبناء العالم إلى المدارس. وجعل ٨٤٠ مليون نسمة مصابين بسوء التغذية، ومليار عاطل عن العمل... وغير ذلك الكثير.

فهل المطلوب في مواجهة ذلك الالتحاق بقطار العولمة الذي تقوده العقلانية المزعومة، أم وضع العراقيل أمام هذا القطار حتى لا يدمر ما تبقى من صلات إنسانية بين البشر. ولعل هذا ما دفع مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ماري روبرتسون إلى القول: "ينبغي أن نتحرك صوب عولمة ذات طابع أخلاقي".

إن الخوف على المسلمين وعلى باقي العالم أفراداً وجماعات هو من التحاقهم المتزايد بمنطق السوق "العقلاني" الذي لا يعرف الشفقة ولا الرحمة. الذي لا يعرف إلا البحث عن المنفعة وتسلق المناصب والذي لا يرف جفنه أمام مريض أو عاجز أو فقير...

المهم، لا مبرر لأن نضع عاشوراء وذكرى إحيائها كنقيض للعقلانية. وحتى لو كانت عاشوراء كذلك فلا بأس من قيامها بهذا الدور أو تلك الوظيفة، إذا كان ذلك يحد من قسوة القلب وتجمد العاطفة.

ثم لنسأل أنفسنا: كيف نحمي السلوك الإسلامي/ الإنساني من الابتلاع أو الذوبان في منظومة قيم الربح والاستهلاك والقسوة والأنانية؟ هذه

المنظومة التي تتعاظم يوماً بعد يوم والتي حوّلت الإنسان إلى فرد وإلى مستهلك لا انتماء له.

إن المناسبات الإسلامية والشعائر الثابتة التي يحييها المسلمون هي من أهم وسائل حماية ذلك السلوك وتعزيزه بالقيم الإنسانية النبيلة. فالصوم والحج والصدقة والزكاة والخمس والفطرة وولادة الأئمة وذكرى وفاتهم وإحياء عاشوراء وزيارة الأماكن المقدسة.. التي تتكرر على مدار العام لا بدّ وأن تترك أثراً في القلب ورقته في مقابل مناسبات وأعياد يخترعها خبراء السوق، ولا تهدف إلا لجعل العلاقات الإنسانية، علاقات إنفاق واستهلاك تصب الأموال في جيوب التجار وأصحاب رؤوس الأموال.

ماذا كان يقصد الإمام الخميني عندما قال: إن كل ما عندنا هو من عاشوراء؟

كيف يقوم الإمام بهذا الربط بين ثورتين؟ فنحن نعلم أن الاختلاف شديد بين التجربتين. فقد أدت الأولى إلى مقتل الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من أصحابه وأهل بيته، وسبق الواقعة انسحاب المؤيدين والمبايعين حتى أصبحوا قلة؛ بينما تحلق الملايين حول الإمام الخميني وانتهت ثورته بإسقاط نظام الشاه.

ربما يظن البعض أن التأكيد على الانتماء إلى عاشوراء والارتباط بها، هو لاستخلاص الدروس والعبر من التجربة. أو هي دعوة للتعلم؛ كيف تكون التضحية في سبيل الهدف، أو كيف يتقدم القائد المعركة.. قد يكون ذلك كله صحيحاً، ولكننا نراه أيضاً في ثورات أخرى في العالم، وليس خاصاً بما فعله الإمام الحسين في كربلاء. ومن المشكوك فيه نظراً لشخصية الإمام الخميني أن يكون هذا ما قصده من التأكيد على ارتباط نهضته بنهضة عاشوراء.

إن القضية هي قضية الشهادة: الشهادة على الأمة. هذه هي القضية وهذا هو الهدف، ولا يهم بعد ذلك إذا تحققت هذه الشهادة بالقتل أو

بالانتصار؛ "لتكون شاهداً على الناس.

كربلاء بالمعايير العقلية هي هزيمة تامة؛ لكنها بمعيار الشهادة على الأمة حققت كل ما كانت تهدف إليه. فقد وضعت كربلاء حدها الفاصل بين إسلام محمدﷺ وإسلام الملوك والسلاطين (ومثلي لا يبايع مثله) ولو لم يقم الإمام الحسين بما قام به، ولو لم يقرر أن يكون شاهداً وشهيداً، لضاعت تلك الحدود بين الحكومة الشرعية وغير الشرعية، ولربما أصبح توريث الحكم في الإسلام شرعة وسنة. ومعه الحاكم الفاسق والفاجر، وليس لهذه الشرعة من يعترض عليها أو يقف في وجهها..

ولهذا كان الإمام الخميني يؤكد دائماً: "سيد الشهداء هو سر بقاء الإسلام. ولولا سيد الشهداء لما استطعنا تحقيق النصر في ثورتنا هذه".

ومن أجل هذه الشهادة على الأمة، حسم الإمام الخميني أمر التقية عند الشيعة قائلاً: "إن التقية شرّعت للحفاظ على النفس أو الغير من الضرر في فروع الأحكام، أما إذا كان الإسلام كله في خطر، فليس في ذلك متسع للتقية والسكوت..".

تلك هي الشهادة على الأمة، وتلك هي عاشوراء التي يراها الإمام خلف ثورته، وهذه هي رسالتها وثقافتها.

السلام على الحسين...

السلام على الإمام الخميني...

د. طلال عتريسي



عاشوراء بين قدسية الموت وثقافة الحياة

عاشوراء بين قدسية الموت وثقافة الحياة

لا نريد لهذا الموضوع أن يتناول الموت والحياة في ماهيتهما وحقيقة جوهرهما؛ إلا بمقدار ما لهذا البحث من دخالة في تشكيل الرؤية العملية والموقف الذي ننتهجه منهما؛ فالناس كانت تدرك وتحس على الدوام برابطة خاصة مع الحياة، كما أنها كانت تدرك هول الموت وما يتركه من انبعاثات للخوف والألم على الوجدان الإنساني منه بشكل خاص، ولقد سعى الإنسان بقلق وجودي دائم للبحث عن سبل مواجهة الموت والحياة، وكلما كان يتعرَّف إلى سبيل ما كان يعمل على تكييف نفسه قدر استطاعته، بحيث لا يتحول القلق والخوف إلى ألم نفسي دائم يخرِّب عليه حياته ويهز استقراره وعملية تفاعله مع الوجود المحيط به، تفاعلاً يهدم مقومات العيش وسبل النمو والترقي والازدهار، ولعل واحدة من أهم وظائف وأدوار الأديان هي معالجة هذه الحالة الإنسانية في مواجهة الحياة والموت.

الحياة والموت في نظر الإسلام:

ينبغي علينا أن نلحظ في البداية أن هناك حالات نفسية تسيطر على الإنسان حين مواجهة الحياة (الميلاد أو الولادة أو الموت)؛ بحيث تُنسيان هاتين الحالتين مستتبعات الحياة الميلاد أو الموت، وهاتان الحالتان هما الفرح عند الميلاد، بحيث أنّا نتعامل مع المولود بالتزيين وكأنما حضور وجوده لا انقضاء له، كما ونتعامل مع الموت وكأنما هو انعدام لا ملتقى بعده ولعل النظرة المادية لهذه المشكلة فرُغت لتقول: بالموت الشامل الذي عبَّر عن بعض وجوهه القرآن الكريم: ﴿**إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما**

نحن بمبعوثين﴾، فليس بعد الدنيا شيء عندهم وعليه؛ فعلينا بناؤها بشكل عُصبوي تنافسي صراعي يبقى فيه الأقوى هو سيد الموت وهو سيد الحياة دون وجود رقيب أو حسيب، وهذا ما احتاج لمعالجة مثل هذه النظرة، احتاج الأمر إلى جملة من التعاليم الإسلامية والتنبيهات الربانية، إلى حقيقة الحياة الدنيا والموت وما بعد الموت. ومن هذه التعاليم والتنبيهات نذكر جملة من الأمور:

أولاً: الإلفات إلى أن دار الدنيا قد تتحول إلى مركز للَّهو والعبث واللعب بالمصير الإنساني وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى: **﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾**. لم ينف في القرآن وجود خير ما في هذه الحياة الدنيا، إذ اعتبر أن أصل الحياة خير، إلا أن ما هو أكثر خيراً وأدْوَم حياةً هي الحياة الآخرة، ومفصل التمييز بين الخير وغير الخير إنما هو حياة التقوى وتمثُّل التقوى، وهذا الأمر قد يُغلِّفه رَيْن اللهو واللعب الذي يمارسه الإنسان دون تعقل لحقائق الأمور ومستلزماتها، من هنا نبَّه القرآن تنبيهاً استنكارياً على الناس بقوله تعالى: **﴿أفلا تعقلون﴾**.

النقطة الثانية من التعاليم أن منشأ اللهو واللعب يعود لأمرين:

- التعامل مع بهارج الدنيا على أنها المتاع الذي يتلبَّس به الإنسان، والمتاع بحسب طبع مُعرَّض للبلاء (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإنما الآخرة هي دار القرار).

- الظن أن الحياة الدنيا هي عمق الحياة الإنسانية وهذا ما نبَّه له الكتاب العزيز بقوله سبحانه: **﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وإنَّ الآخرة لهي الحيوان﴾**.

فعدم الالتفات إلى عمق ومغزى الحياة وأنها تقترن بالخلود - الذي ينسجم مع هذا الخلود - مع الحياة الآخرة، والتي لا تكون إلا بالحياة

الآخرة، عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة هو ما يُفضي عادة إلى الركون إلى الحياة الدنيا.

ثالثاً: أن فهم الدنيا باعتبارها مركزاً للعب واللهو، وأنها مجرَّد متاع، يؤسس لفهم وثقافة التعاطي معها كمعبر للحياة الآخرة، أو حسب الروايات باعتبار أن الدنيا هي مزرعة للآخرة، وبحسب ما يزرع هنا فإن الجزاء والحصاد يكون في الآخرة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ***"ما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت الذي ينزل بكم"***.

رابعاً: التنبيه إلى أن الموت وترك الحياة الدنيا هو المصير الحق الذي سينزل بكل مخلوق: **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾**، وقوله سبحانه: **﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾**.

خامساً: تأكيد أن وجود الحياة الدنيا التي يليها الموت ليس عبثاً؛ بل عن حكمة وجودية مفادها أن الحياة كما الموت هي بلاء الإنسان، وإنما يرتقي سبل الكمال ومدارجه بحسب قدرته على الخوض في امتحانات البلاء، وهذا الامتحان هو فتنة الناس إذ يُعرض عليهم الخير والشر بحسب اختيارهم يكون رسم مصيرهم الخالد، وستبقى هذه الفتنة التي فيها الابتلاء مفتوحة أمام الناس إلى يوم لقاء الله؛ فمنهم من يترك الصلاح ليركن إلى الدنيا، كما حصل مع عمر بن سعد الذي خيَّر نفسه بين الجنة ومتاع حكم الري فاختار حكم الري. كما حصل مع الحر الرياحي الذي خيّر نفسه بين الجنة والنار فاختار الجنة على النار، رغم أنه جعجع بالإمام الحسين عليه السلام وأخَّره عن الماء، وفي هذا السياق: **﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾**، الله العزيز الذي لا يضيم، وأيضاً غفور قابل للتوبة.

سادساً: أن نتعامل مع واقعة الموت حين تمثّلها أمامنا باعتبارها الحقيقة التي كتبت علينا نحن. هذه من التنبيهات في التعاليم الإسلامية، وهذا

الموت كُتب عليك أنت، كُتب عليَّ أنا، كُتب علينا نحن، لا أنه كُتب على غيرنا دوننا. ففي الوارد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ كان يحضر جنازة فسمع أحداً يضحك فقال: "فكأن الموت فيها على غير ما كتب... وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموت".

سابعاً: الاعتبار بالمرض والألم والشيخوخة والنظر إليها كرسل للموت يقول تعالى: **﴿والله خلقكم ثم يتوفّاكم ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾**، وأرذل العمر هو أدْونه؛ إذ يؤثر على جوارح الإنسان وعقله بالهرم ليعود كما كان طفلاً فلا يعلم مما تعلّمه شيئاً. إلا أن هذه التعاليم والتنبيهات لا تتعلق بالدنيا كدنيا بل كيف يتمثل الإنسان بالتعاطي معها وليس المستنكر الدنيا، بل بطبيعة النظر إليها باعتبارها مجرَّد مركز للعب والعبث والمتاع المذموم الذي يتمثل بالتعلق القلبي بها، وإلا فإن الحياة خير وإنما كانت الحياة الدنيا من رب الخير، من هنا طلب الله من عباده أن يعملوا لتُشرق بنور ربها الأرض، وأن يحكموا فيها بأحكام القسط والعدل الإلهي وأن يستشهد في سبيل ذلك أعظم الخلائق من الأنبياء والأوصياء والصديقين. ومن هنا حمل الإمام الحسين ﷺ سيفه على الظلمة كما فعل جده وأبوه؛ فلا يصح لا من حيث الغايات التنكر للدنيا والحياة فيها، ولا يصح التنكر أيضا لأحداثها وعِبَرها وسننها الإلهية، ولهذا جاء أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ اعترض على من ذمَّ الدنيا قائلاً له: "أيها الذامّ للدنيا المغترُّ بغرورها المخنوع بأباطيلها ثم تذمها أتغترّ بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرّم عليها أم هي المتجرّمة عليك متى استهوتك أم متى غرَّتك؟ أبمصارع آبائك من البلاء أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى؟ كم علّلت بكفَّيك، وكم مرضت بيديك، أبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفاقك ولم تسعف فيهم بطلبتك ولم تدفع عنهم بقوتك، قد مثلت لك الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك؛ إن الدنيا دار صدق

لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد أذنت بينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها؛ فمثُلت لهم ببلائها البلاء وبسرورها إلى السرور راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترهيباً وترغيباً وتخويفاً وتحذيراً، فذمها رجال غداة الندامة وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكرتهم الدنيا فتذكروا، وحدثتهم فصدّقوا، ووعظتهم فاتعظوا" صدق ولينا وإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام.

فالدنيا إذن، موجود محايد ومائدة ممدودة فيها ما فيها، من الذي إن حفظناه لمجرد الصورة تحوَّل إلى شيء عفن، وإن تناولناه لما فيه الغذاء لروحنا كانت صلة استمرار لحياة هنيئة؛ فنحن الدنيا المذمومة إذن، ونحن الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، وعلى هذا النحو من الفهم تفتقت كل القرائح والسجايا لتعاليم السماء عند الإمام الحسين عليه السلام ومن كان معه من أهل بيته وأصحابه، فالعلاقة التي تقوم على ربط المصير بالدنيا وحدها نابعة عن الغفلة والجهل بينما العلاقة معها كمزرعة للآخرة إنما ينبع عن علم يولّد الاطمئنان النفسي والهدوء في مواجهة كل الزلازل بما فيه الموت. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**﴾، ﴿**فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم**﴾.

نظرة الإمام الحسين إلى خير الدنيا والآخرة:

ورد في الأخبار أنه قد قيل للإمام الحسين عليه السلام: إن أبا ذر يقول: "الفقر أحب إليَّ من الغنى والسقم أحب إليَّ من الصحة". فقال عليه السلام: "رحم الله تعالى أبا ذر؛ أما أنا فأقول: من أنك على حسن اختيار الله لم يتمنَّ غير ما

اختاره الله عز وجل له". هذه المقولة للإمام الحسين، تؤسس لثقافة في الدنيا لا تقوم على الزهد السلبي، بل على التعامل مع حكم الله بحسن الرضا والتوكل؛ بحيث يكون أي حال من أحوال الإنسان في الفقر أو الغنى في الحكم أو الاضطهاد هو مورد لعبادة الله والعمل على إنفاذ إرادته سبحانه. هذا ما يؤسس لثقافة الغنى والعز في الحياة؛ إذ ورد عنه ﷺ: ***"إن العز والغنى خرجا يجولان فلقيا التوكل فاستوطنا"***.

ومقتضى التوكل في الحياة العامة والعلاقة مع الناس أن تُبنى العلاقة على أساس حكم الله ورضاه إذ سُئل ﷺ: "ما هو خير الدنيا والآخرة؟ فكتب قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم؛ أما بعد، فمن طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس والسلام".

فالحر الغني العزيز هو الذي يتعامل مع الناس كخلق لله لا كأولياء لنعمة وجوده ومكانته؛ من هنا استمر ﷺ رغم كل المعارضين لحركته وكان يقول مناجياً ربه: ***"إلهي وسيدي وددت أن أُقتل وأُحيا سبعين ألف مرة في طاعتك ومحبتك سيما إذا كان في قتلي نصرة لدينك وإحياءً لأمرك وحفظاً لناموس شرعك"***. وكان ﷺ ينظر إلى كل صنوف البلاء باعتبارها مفتاحاً للفرج ففي الرواية أنه لما نظر إلى أهل بيته وأصحابه وكلهم صرعى خاطب من بقي من النساء والأطفال قائلاً: "استعدوا للبلاء، واعلموا أن الله حافظكم وحاميكم وسينجيكم من شر أعدائكم، وسيجعل عاقبة أمركم إلى خير ويعذّب أعاديكم بأنواع البلاء، ويعوّضكم الله عن هذه البلية أنواع النعم والكرامة؛ فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم." فنظريته لعواقب الأمور لم تقتصر على حدود الدنيا؛ بل الآخرة أيضاً باعتبارها الحياة الحاضرة على الدوام؛ لأن حضور الله في الدنيا ورعايته لأهلها هو حاضر على الدوام، من هنا تحدث عن أن كسب الآخرة يكون بشرط الصبر

وأن لا يقول المرء ما يقلل من قدر عبوديته لربه سبحانه. وهذه الملاقاة للموت وفهم الحياة قامت عند الإمام الحسين ﷺ على أصلين؛ أولهما: أن الموت قد خط على ابن آدم وأن ما بينه وبين ملاقاة الحياة الخالدة ليس إلا عبور قنطرة الموت. فإذا كان العبور بإرادة تصنع العز تحول الموت إلى خلود، إذ الحياة بموتكم لعدو الله ولصعوبات الموت، بينما الموت الذي هو خسران دائم لحياة الآخرة هو بالحياة مغلوبين، وهو - هذا الأمر- كان يُلحظ عند الإمام الحسين ﷺ من قبل الكثير ممن حدَّث عنهم في كربلاء، أنه كلما اقترب من الموت أكثر كانت تباشير الفرح على وجه وتبدو السعادة على وجهه أكثر.

ثانيهما: أن إعمار الحياة الدنيا واجب على كل مكلف أن يسعى إلى تحقيقه، ولو كلّف الأمر بذل الروح والشهادة على طريق هذه العزة. من هنا كان يردد ﷺ: *"ألا إن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة"*.

وإلا فأصل طلب القدر دونما هدف هو انتحار يعاقب المرء عليه من قبل الله، وهذا ما تضج به الأحكام الشرعية وما تنطق به الآيات القرآنية: **﴿من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً حتى لو كانت هذه النفس- قاتل هذه النفس قتل نفسه﴾**.

وهذا الفهم وجدناه عند أصحاب الإمام الحسين ﷺ فمنهم من تأمل الحياة والموت واستيقن ما بعد الموت وعلى أساس هذه القناعة اختار الشهادة بين يدي الإمام الحسين ﷺ. من هؤلاء كنموذج الحر الرياحي الذي قال وهو ينتقل مرتجفاً نحو الإمام الحسين: "إني والله أخيِّر نفسي بين الجنة والنار ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطِّعت وحرقت،" ثم جاء الإمام الحسين منكساً رأسه قائلاً له: "قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك أفترى لي مثوبة؛" فالمقدس

عند الحـر الذي حـوّل الموت إلى فـعل مـقدّس والذي هـو أغـلى من الاسـتمـرار بالحياة الـدنيا كانت الجنة الـتي أرادهـا بالتوبة وولاية الإمـام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

سماحة الشيخ شفيق جرادي



تولي الإمام الحسين بين الغلو والاعتدال

تولي الإمام الحسين بين الغلو والاعتدال

قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾. (الفجر، ٢٧ - ٢٨)

هذه الآية المباركة تنطبق على أشرف وأعلى مصداق وهو الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

﴿**يا ايتها النفس المطمئنة**﴾، وصل هذا الإنسان الإلهي إلى مرتبة حتى ربنا الجليل يعبِّر عنها بهذه الكيفية "النفس المطمئنة" التي تخاطب مباشرة بخطاب ربها: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة**﴾، ربنا الجليل يخاطب صاحب هذه النفس المطمئنة من دون أي واسطة، وأي ملك مقرَّب أو نبي مرسل، من دون أن يكون أحدا بينه وبين هذا العبد الذي هو عبد فقط: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية**﴾. من يمكنه أن يدَّعي أنه راضٍ من الله؟ وراضٍ بقضاء الله وقدره؟ راضٍ بعلمه السابق، وبصنعه وبفعله وبمشيئته، من يمكنه في هذا العالم أن يدَّعي بهذه المرتبة من الرضا إلا أئمة أهل البيت عليهم السلام ؟ وأشرف وأعلى مصداق إمامنا الحسين عليه السلام ﴿**ارجعي إلى ربك راضية مرضية**﴾ أنت راضٍ من الله بما أراد، أرادك أن تكون قتيلاً، فرضيت، أرادك في كربلاء فرضيت، أراد أن يرى أهل بيتك أسارى فرضيت، ﴿**راضية مرضية**﴾ الرب راضٍ وهو مَرْضي، ﴿**فادخلي في عبادي**﴾. عبادي هنا غير العباد الذين يعملون عملاً، بل (عبادي) منسوب إلى الذات أي عبده فقط عبده لنفسه، بل هو عبده وحده، عبد الذات الإلهية، لا يعبد اسماً دون اسمٍ، لا يعبد وصفاً دون وصف، بل يعبد الذات

المستجمعة لجميع صفات الكمال، صفاته العليا، يعبد جميع الأسماء والصفات، عبده كما هو أراد .

أشرف مقام وأعلى مقام لأئمة أهل البيت عليهم السلام أن يكون عبيداً بتمام حقيقة المعنى وبجميع مراتب العبودية، هذه المرتبة ليست سهلة أن يقول الإنسان: أنا "عبد".

﴿أدخلي جنتي﴾ ليس في الجنّات، بل (جنتي) ولا جنّتان لمن خاف مقام الله بل (جنتي).

(جنتي) لها مرتبة خاصة أعلى من (الجنّات وجنّتان)، هذا المقام لا يليق إلا بأئمة أهل البيت عليهم السلام ؛ ومنهم الإمام الحسين عليه السلام. هذا الإمام بالخصوص، وموضوع كلامنا بحاجة إلى عدة جلسات لا جلسة واحدة. يجب أن نفهم معنى الغلو حتى يمكننا التحرك في هذا البحث، وهنا يوجد اختلاف بين علمائنا نحن، ولكن وردت مسألة الغلو في كتاب الله، وفي روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وينبغي الالتفات إلى هذا الموضوع جيداً، أن نفهم أين هو حد الغلو؟ هل يمكن للإنسان أن يبالغ في شأنهم؟ كل ما نقول في شأنهم: ما زلت مقصِّراً، الغلو يعني أنك تفهم حقيقتهم وتزيد في مقاماتهم ودرجاتهم الشيء الذي ليس لهم، تدركهم حق الإدراك وتعرفهم حق المعرفة ولكنك تزيد على مقاماتهم.

والمغالي هو المزيد والمبالغ في شأنهم عليهم السلام بالأشياء، كل ما نفهمه ما زلنا مقصرين، وقد أنكروا الغلو، وإذا أردنا أن ننظر من المنظار الصحيح ونفهمهم حق المعرفة، فنحن عاجزون عن فهمهم وإدراكهم ولسنا نحن فقط بل كبار العلماء والمفكرين، سلمان مع مقامه كان عاجزاً عن فهمهم، وأبو ذر مع قربه من الإمام علي كان عاجزاً. وإذا أراد أحدا أن يدرك حقيقة أهل البيت لا يمكنه، الحقيقة الفاطمية مجهولة، حقيقة أمير المؤمنين مجهولة، حقيقة الإمام الحسين مجهولة، كيف ندركهم ونحن لم ندرك أنفسنا ولا

عـالمنا المـادي، ولا ظواهر الأشـيـاء؟ من يقـدر أن يدرك حـقـيـقـة أهل البيت عليهم السلام؟ قالوا: نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد من هذه الأمة.

لقد كان الإمام الخميني قدس سره يقول في شـأن علي عليه السلام: "سمي علياً لأن كل ما نقـول في شـأنه ما زال هو علياً عمًّا نقـول". الفقهاء يقـولون بشـأن علي، فهو علي عمًّا يقولونه، والمتكلمون يقولون في شأن علي وهو عليٌّ عمًّا يقولونه، الفلاسفة يقولون عن علي وهو علي عما يقولونه...

من يسـتطيع أن يقـول: إنه فـهم حـقيـقـة كـربلاء؟ لقـد شـرح الكثيـر من العلماء يوماً واحداً من حياة الإمام الحسين عليه السلام وهو العاشر من محرَّم، هل قدروا أن يقيِّموا كربلاء حق التقييم؟ الإمام الحسين بعد صلاتي الظهر والعصر دخل في المعركة وجاهد وقاتل الأعداء حتى استشهد، هل قدر أحد من هؤلاء المؤلفين والمؤرخين أن يبيِّنَ حقيقة الإمام واليوم العاشر من محرَّم؟ لا، لم يقدروا.

نأتي إلى مـا كنا عليـه: نحن نقـول: ندركـهم حق الإدراك ونزيد في مقـامـاتهم، ولكن حقيقة لا يستطيع أحد أن يقول هذا الكلام، ولكن الغلو بمعنى أن تقول أشيـاء في شـأنهم وهم لا يليقـون بهذه الأشـيـاء، أنت تعبِّر عنهم بعبارات لا تليق بهم، هذا هو الغلو وموجود في كتاب الله العزيز، يقول ربنا خطاباً لأهل الكتاب: ﴿**يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم**﴾، يمكن للغلو أن يأتي في كل مجـالات الدين، يمكن أن يأتي في الصـلاة والصـوم والأحكام الشـرعيـة...، ويمكن أن يكون بشـأنهم ﴿**يا أهل الكتـاب لا تغلو في دينكم** (أصل الدين) **ولا تقـولوا على الله إلا الحق إنما المسـيـح عـيـسى بن مـريم رسول الله وكلمتـه ألقاها إلى مريم وروح منه**﴾ (النساء، ١٧). المسيحيون بالغوا في شأن عيسى جعلوه إلهاً ورباً، لم يدركوا عبودية عيسى ومعناه وكلمة الله، قالوا شيئاً لا يليق به، بل هم بدلوا نعمة الله كفراً. والقرآن في كل مرة يتحدث عن عيسى يقول: (عيسى بن مريم) دائماً يذكر اسم أمه. في سورة

المائدة ﴿يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ (المائدة، ١١٦). أئمتنا قالوا: "نزهونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم". القرآن يخاطبنا نحن لنعرف كيف نتكلم عن الأولياء: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة، ١١٨).

يأتي أحد ولا يعرف أن يتكلم عن الإمام علي عليه السلام أو الإمام الحسين عليه السلام، فيتكلمون عنهم بطريقة خاطئة فيغضب الأئمة عليهم السلام.

حين يقول: "لا تغلوا في دينكم"؛ أي لا تغلوا في شأن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولا في شأن الرسول صلى الله عليه وآله، أي لا تتجاوزوا الحدود، فلكل شيء حدٌ، وحينما يخرج الإنسان عن الحدود يغالي والمغالي كافر. "لا تغلوا في دينكم"؛ أي لا تتجاوزوا الحد، كما قال: ﴿من يتعدً حدد الله فقد ظلم نفسه﴾ (الطلاق، ١)، ﴿من يتعدً حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ (البقرة، ٢٢٩). فأن نقول: بالحلول والاتحاد أنهم حل الله بهم "فقد ظلم نفسه" هذا خروج عن الحد.

كما في الأحكام الفقهية هناك باب للحدود يجب الالتزام به وهنا أيضاً يوجد حدود معينة.

يقول صاحب مجمع البحرين: "الغلاة هم الذين يغالون في عليّ ويجعلونه رباً".

وابن الأثير يروي هذه الرواية عن الرسول صلى الله عليه وآله: "إياكم والغلو في الدين"، ثم يفسِّر الغلو ابن الأثير ويقول: "أي التشدد فيه ومجاوزة الحد". اللّه يحب العدالة في كل شيء، إما شيء عملي وإما شيء نظري، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "هلك فيّ رجلان، محبٌ غال ومبغض قالٍ"، والإمام عليه السلام هنا يتحدث عن الغلو في المحبة، لا في المعرفة، فهناك أشخاص يبالغون في الحب "هلك فيّ رجلان" الإمام لا يمدحهم وهذا ذم لهم. يجب على الإنسان أن يرى حد المحبة، هذه المحبة لا تؤدي إلى الجنون، عن الرسول صلى الله عليه وآله:

صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام الغلاة والقدرية".

شيخنا الطوسي يروي عن فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام قال عليه السلام: "احذروا شبابكم الغلاة"؛ لأن الشباب والنساء وعامة الناس يأخذون بالغلو. "لا يفسدوهم فإن الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدّعون الربوبية لعباد الله، وإن الغلاة لشر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا". هم يفسدون العقائد والعقول والدين، يبررون المعاصي، فإذا كنت شارباً للخمر ابكِ يوم العاشر من المحرَّم فتدخل الجنة؛ هذا كذب وافتراء على عاشوراء، أساس الدين الأخلاق والإنسانية ومعرفة الله ومحبة أهل البيت، من يحب إماماً يحبه بأوصافه وفكره ونهجه ورسالته. بكاؤنا يوم عاشوراء إذا كان عن محبة والتزام ومعرفة، فيكون مفخرة لنا وطريقنا إلى الجنة.

لا يوجد انسجام بين الصلاة والفحشاء والمنكر **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** (العنكبوت، ٤٥).

المجلسي رحمه الله قال في الغلو والتفويض: "اعلم أن الغلو في النبي والأئمة عليهم السلام إنما يكون بالقول: بألوهيتهم وبكونهم شركاء للّه في العبودية والخلق والرزق، أو أن الله تعالى حل فيهم أو اتحد بهم، أو أنهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى، أو بالقول في الأئمة عليهم السلام أنهم كانوا أنبياء، والقول: بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض، أو القول: بأن معرفتهم تغني عن جميع التكاليف معها بترك المعاصي، والقول: بكل منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين كما دلّت عليه الأدلة العقلية والآيات والأخبار السالفة وغيرها. وقد عرفت أن الأئمة عليهم السلام تبرّؤوا منهم وحكموا بكفرهم وأمروا بقتلهم". فهم يفسدون، والفساد في العقيدة أكبر من أي فساد آخر.

خرج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى كربلاء، ولكنه قبل خروجه من المدينة كتب وصيته بخط يده الشريفة وسلمها إلى أخيه محمد بن الحنفية، يقول: " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به

الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية أن الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله (الله هو الظاهر وهم عليهم السلام مظهر)، (الإنسان الكامل الذي يتصرف في هذا العالم يتصرف بالمظهرية، كيف نفهم أن الله سبحانه هو الظاهر وأئمة أهل البيت هم مظهر وأن الله من خلالهم يتصرف، كيفية هذا التصرف بحاجة إلى علم العرفان)، جاء بالحق من عند الحق وأن الجنة والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً (يجب أن نفهم لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام ؟ لماذا دخل في المعركة التي استشهد فيها واستشهد معه أصحابه؟ ما الهدف من ذلك؟ فعل الإمام الحسين عليه السلام جامعة وحوزة ومعهد ويجب أن نأخذه لندرس الهدف الشريف؟).

وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جديﷺ وأبي علي بن أبي طالبعليه السلام؛" الإمام من أجل الحق لا يبالي، سواء استشهد وقتل واحتز رأسه لا يبالي.

في إيران كانوا يأتون بمحاضرات قيمة حول استشهاد الإمام الحسينعليه السلام عبّأوا الناس حتى قامت الثورة. ليس هدف الإمام الحسين عليه السلام بعد مئات السنين أن نأتي نحن ونأخذ سكيناً ونضرب رؤوسنا ونقول: واحسيناه، هذا انحراف وغلو.

الإمام أعطى لنا فكرة أن نضرب السيوف على رؤوس أعداء الإمام الحسين عليه السلام الظلمة، اليهود والمفسدين. الأمر بالمعروف غير الدعوة إلى المعروف، الدعوة تكون بالمحاضرة وتأليف الكتب وبالإذاعات والتلفزيونات هذه دعوة الناس إلى المعروف، ولكن أمرهم بالمعروف يحتاج لشهادتهعليه السلام، بدم علي الأكبر والقاسم وحبيب بن مظاهر... وأمر بالمعروف حتى نأتي نحن بعد مئات من السنين ونفهم المعروف ونفهم المنكر، ونأمر أنفسنا

بالمعروف وبعدها نأمر الآخرين بالمعروف.

"فمن قبلني بقبول الحق فاللّه أولى بالحق ومن ردَّ علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين وهذه وصيتي يا أخي إليك، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

هذا الموضوع مهم جداً، وباختصار، إذا أراد أحد أن يدقق في هذه الوصية يعرف كيف يوالي الإمام الحسين عليه السلام، ويعرف ما عليه فعله ولو بعد مرور مئات السنين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد للّه رب العالمين

سماحة الشيخ علي مسيبي



الرضوان الإلهي في محضر المجلس الحسيني

الرضوان الإلهي في محضر المجلس الحسيني

الدراسـات الحكمية والفلسفية تقول: إن لله سبحانه أوصافاً. ثم يقسمون تلك الأوصاف إلى قسمين:

- الأوصاف الذاتية.
- الأوصاف الفعلية.

الأوصاف الفعلية هي الأوصاف التي تنتزع من فعل الله سبحانه وتعالى لا من ذاته.

من جملة هذه الأوصاف الفعلية: الرضا والسخط. هذه الدراسات تبين أن الله سبحانه وزّع رضاه في أحكامه، فهذه الشريعة المطهّرة تبين الواجبات وتبين المحرمات بشكل عام. الواجبات بشكل عام أي المستحبات والواجبات التي ترجع إلى المستحبات.

رضا الله سبحانه ليس أمراً ذهنياً موهوماً، كي نجلس هنا ونخرج ونقول: إن لله سبحانه رضاً وسخطاً فقط بدون أن يترك فينا أثراً إيجابياً من ناحية الرضا أو أثراً سلبياً من ناحية السخط، ولهذا قلت: من جملة أوصافه الفعلية الرضا والسخط. ما معنى ذلك؟ يعني وجود خارجي حقيقي وواقعي يمكن للعقل أن ينتزع من هذا الفعل رضا الله سبحانه وتعالى، ومن فعل آخر سخطه، انتزاعاً منطبقاً على الواقع، وكما أشرت أن تلك الدراسات تبين بوضوح أن الله سبحانه وتعالى، وزع رضاه في أحكامه الواجبة، من الصلاة والصوم والزكاة والحج والخمس وما إلى ذلك، وأيضاً جعل سخطه في محرماته، فكل محرَّم يرتكبه أحد - والعياذ بالله - فإن

العقل ينتزع من ذلك العمل سخط الله ذلك الفعل نفسه يكون مصداقاً لسخط الله سبحانه، هذا أمر بديع وعظيم جداً.

على هذا الأساس، كل واجب من الواجبات إذا ارتكبه أحد يجلب رضاً من رضا الله سبحانه، وإذا ارتكب معصية وذنباً وحراماً، يجلب إلى نفسه سخطاً من سخط الله سبحانه.

هذه الواجبات كما تعلمون متعددة وعديدة ومختلفة، ولكن كلها مشتركة في أنها تؤدّي إلى رضا الله سبحانه وتعالى. من جملة هذه الأمور المؤدية إلى رضا الله تعالى المجلس الذي يرتبط بذكر عزاء الإمام الحسين عليه السلام، بدون أي مجاملة. انظروا إلى الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، يكفيكم إحصاء عدد الزيارات التي وردت في كتاب مفاتيح الجنان، عدد الزيارات المرتبطة بالإمام الحسين عليه السلام يصل إلى ٨٣ زيارة في مفاتيح الجنان، من بداية السنة إلى آخرها نجد زيارات متعددة قريبة إلى ٨٣ زيارة، بينما لا نجد أكثر من ١٠ زيارات للإمام الهادي عليه السلام، أو الجواد عليه السلام. مثل رواية أيضا: "من بكى على الحسين وجبت له الجنة" وورد في روايات أخرى: ثواب البكاء الأول، والإبكاء ثانياً، والتباكي ثالثاً، للتباكي ثواب دون أن يبكي ويُبكي الآخرين، ليوم عرفة مقام عظيم لا يعدّ ولا يحصى؛ ومع ذلك وردت الروايات وتقول: إن الله سبحانه وتعالى يوم عرفة حينما ينظر إلى عباده ليغفر لهم في البداية ينظر إلى زوار الحسين عليه السلام، وبعد ذلك ينظر إلى عرفات، هذا قليل ويحتوي رضوان الله سبحانه وتعالى. أظن أن هذا الأمر واضح جداً، لا نحتاج إلى إثباته عند حضراتكم. ولكن هنا شيء يجب أن نلتفت إليه، وذلك الشيء مرتبط جداً في هذا الرضوان الإلهي.

الله سبحانه وتعالى خلق الكون من مستويات عديدة، لم يخلق الجميع في مستوى واحد، يقول المفسرون في ﴿**له الخلق والأمر**﴾: إن الأمر يشير إلى عالم التجرد والخلق يشير إلى العالم المادي، لعالم المادة ميزات خاصة

به، ولعالم التجرد أيضاً ميزات خاصة به، عالم التجرد أعلى مستوى من عالم المادة لأن عالم المادة عالم تدريجي يخرج فيه الشيء من القوة إلى الفعلية في زمن محدَّد. بينما أن الأشياء في عالم التجرد لا إلى الحركة، بل كل الكمالات التي يمكن أن تحصل لشيء مجرَّد تحصل له في بداية خلقته. ويكون عالم التجرّد أعلى مستوى من عالم المادة، وأيضاً عالم التجرّد ليس على مستوى واحد فقط، بل في داخل عالم التجرد أيضاً توجد مستويات مختلفة. ويقول حكماؤنا: فرق بين الإنسان والملك، الإنسان نوع تحته أفراد؛ زيد وعمر وبكر... والملك ليس نوعاً تحته أفراد، بل كل ملك نوع منفرد لا يوجد تحته أفراد، نستفيد من هذه القاعدة أن في عالم التجرد توجد طبقات عديدة جداً، ولهذا نسمع من القرآن الكريم حينما يتحدَّث عن الملائكة ينقل قولهم وهم يقولون: **﴿وما منّا إلا وله مقام معلوم﴾** (الصافات،١٦٤)، لجبرائيل مقام خاص، لا يستطيع جبرائيل التجاوز عن ذلك المقام إلى مقام أعلى من ذلك المقام، ولهذا ترون في حديث المعراج، وصل جبرائيل مع رسول الله ﷺ إلى مرتبة وقال له: يا رسول الله اذهب أنت وأنا أبقى هنا، لو دنوت أنملة لاحترقت.

يقول المولوي: "... فارسي.." "إذا أظهر رسول الله ﷺ حقيقته إلى جبرائيل يُغشى عليه إلى الأبد ولا يفيق أبداً".

فنظام الكون على مستويات عديدة، من جانب آخر، هناك مصطلح أول من ذكره المعلم الثاني أبو نصر الفارابي سمّى هذا النظام الذي يكون على مستويات مختلفة باسم نظام الفيض، على صعيد آخر نجد هذه الأطوار، هذه المقامات، هذه المستويات في حقيقة الإنسان أيضاً. جوهر كلامي أن الإنسان له مستويات متعددة، فلا يمكن مقارنة أبو لهب برسول الله ﷺ.

فلسفياً نقول: إن أبا لهب إنسان ورسول الله إنسان، من حيث الماهية حيوان ناطق، ولكن من حيث مستويات الكمال لا نستطيع أن نقول: أبو لهب إنسان وأن رسول الله إنسان؛ بل إن رسول الله فوق الإنسان، وإذا قلنا: إن

رسول الله ﷺ إنسان لا نستطيع أن نقول: إن أبا لهب إنسان، بل هو دون الإنسان، وإلا فعلينا أن نرفض هذه المقارنة (اتحاد العمل بالعامل). انظروا إلى القرآن الكريم كيف يتبيَّن هذه الحقائق، مرة يقول بالنسبة للإنسان المتعالي، بالنسبة للإنسان الذي يعمل عملاً صالحاً يقول: **﴿لهم درجات عند ربهم﴾** (الأنفال، ٤)، الله تعالى بالنسبة لبعض الناس يكون لهم درجات، وأخرى يقول الله في هذا القرآن: **﴿هم درجات﴾** (آل عمران، ١٦٣) بحذف اللام. **﴿لهم درجات﴾** يبيِّن أن هناك إنساناً ومقاماً، وأن هذا المقام حصل لهذا الإنسان، ولكن هذا الإنسان لم يصل إلى ذلك المقام بحيث يفني وجوده في ذلك المقام ويفنى ذلك المقام في حقيقة هذا الإنسان، بينما أن **﴿هم درجات﴾** تدل على هذا الأمر. ويرجع إلى مستويات الإنسان، نجد الكثير من الآيات التي تدل على هذه الأمور، **﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾** (آل عمران، ٣٧) فرق كبير بين أن يقبل الله سبحانه عمل إنسان وبين أن يقبل العامل، حينما يقبل العمل يدل على أن العامل لم يصل إلى مرتبة العمل كما يقول: **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾** (الحج، ٣٧)، بالنسبة لبعض العباد الله سبحانه وتعالى لا يقبلهم، بل يقبل أعمالهم صلاتهم، حجهم، ولكن حينما يصل إلى مريم عليها السلام يقول **﴿وتقبلَّها ربها﴾**، وأيضاً في دعاء الندبة يقول: (وقَبلتهم وقرَّبتهم...) (فقبلت منهم الوفاء) حتى يصل إلى هذه العبارة (وقبلتهم وقربتهم)؛ كما نجد هذا الفرق الكبير بين الآيات التي تقول: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** (لقمان، ٨) **﴿وهو يتولى الصالحين﴾** (الأعراف،١٩٦) فرق بين (الصالحين) وبين (الذين عملوا الصالحات).

يوجد في القرآن عدد كبير من الآيات دائماً تذكرنا بهذه الفوارق، مثلاً: الإنسان يذهب إلى الحج، حين الإحرام يقول: " لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك"، يلبون نداء ولكن بعضهم يلبون بمقام اللفظ فقط من حيث الوظيفة ولا يسمعون نداءً أساساً. و وبعضهم يسمعون نداء النبي

إبراهيمﷺ الموجود في هذا العالم، وبعض يسمعون نداء النبي محمد ﷺ ويقولون: (لبيك...)، وبعضهم يسمعون نداءً أعلى مستوى نداء الله سبحانه وتعالى (إلهي واجعلني ممن ناديته) هذا المقطع في المناجاة الشعبانية التي قرأها كل الأئمة ﷺ (فأجابك ولا خطته فصعق لجلالك فناجيته سراً وعمل لك جهراً)، يقول أمير المؤمنين ﷺ في نهج البلاغة: "إن لله سبحانه وتعالى عباداً يناديهم في فكرهم ويتحدث معهم في عقولهم"، بعض الناس حينما يحجون يسمعون كلام الله سبحانه حينما يلبيهم فيقولون: (لبيك).

وهكذا بالنسبة للصلاة، فصلاة كل منّا مختلفة عن صلاة الآخر. وهكذا بالنسبة للصوم وبالنسبة للخمس... نعود إلى البحث أردت أن أقول في هذا المجلس الكريم: إن رضوان الله سبحانه وتعالى في المجلس الحسيني؛ هكذا نفهم أكثر من سائر الأمور ولكن هذا لا يكفينا الأمر الأساسي يعود إلينا نحن في أي درجة من الدرجات المعنوية والروحية. كلٌّ يستفيد في هذه الأيام من الرضوان الإلهي على قدر وعائه (وعاء حقيقة الإنسان)، الرضوان الإلهي موجود هنا أكثر بكثير. والربط هو درجتك، وبقدر الدرجة تستفيد من الرضوان. يقول حافظ الشيرازي (فارسي) ومعناه: (وجه ليلى موجود في العالم، فقط تحتاج أن تكون مجنوناً كي تراه). وفي ختام البحث أيضاً يقول المولوي (فارسي) معناه: في هذه الأيام تأتي نفحات إلهية وتحيي بعض القلوب وتذهب، ونفحة أخرى تأتي تدريجياً، فكن واعياً لكي تستفيد من تلك النفحة الآتية.

يجب علينا أن نوسع وننمي هذه الوعاء. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

والحمد للّه رب العالمين.

سماحة الشيخ علي سائلي